روايات مصرية للجيب

د. نبيل فاروق

كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

Looloo
www.dvd4arab.com

44

الزهرة القرمزية

وقصص أخرى

- مع بدء العد التنازلى ، نحو القرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000 ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم ..

سعدية

(قصة قصيرة)

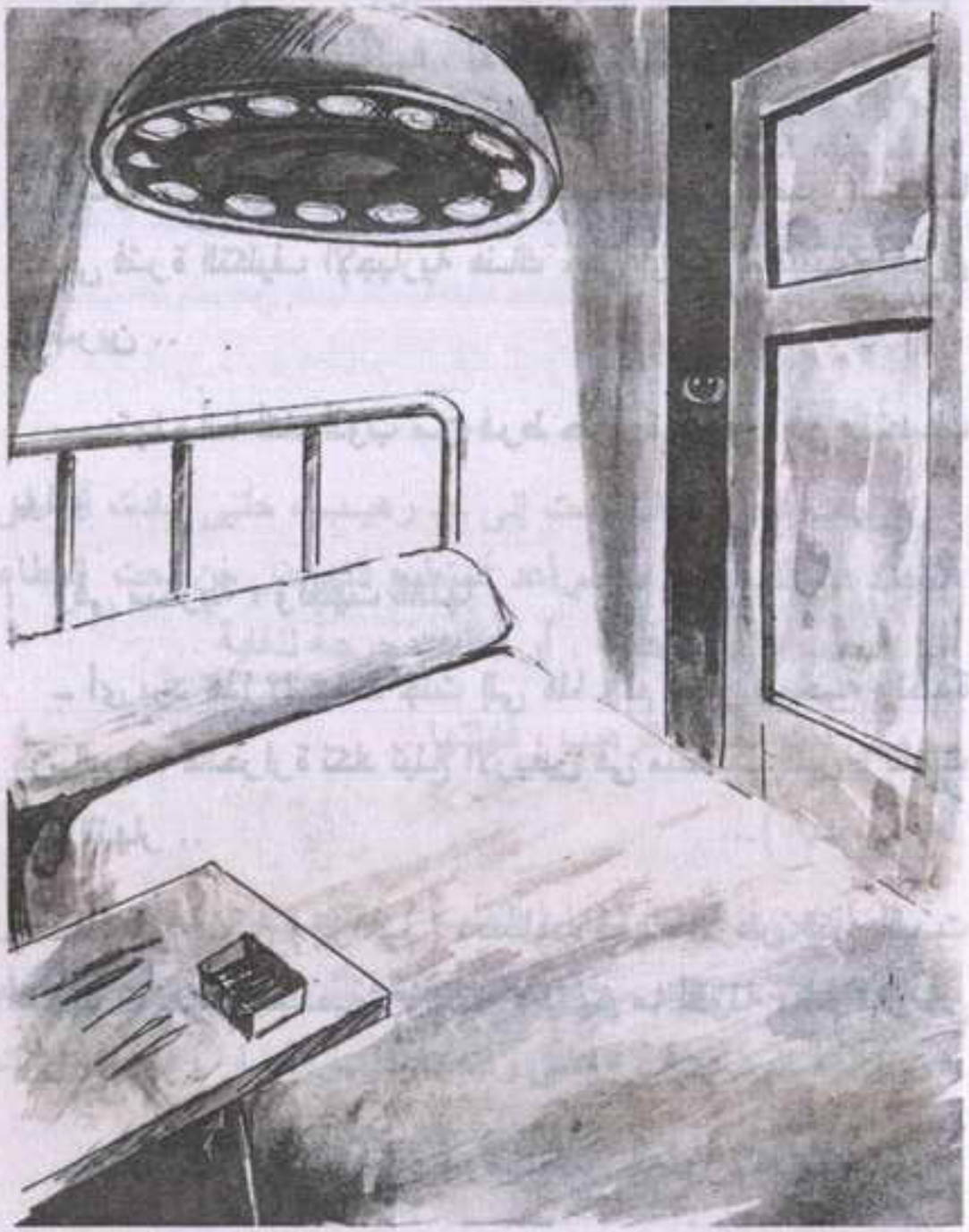

سعدية

(قصة قصيرة)

« حر الجبال ولا بردها .. »

عبارة سمعتها لأول مرة ، فى قلب صعيد (مصر) ، وأنا أقضى فترة التكليف الإجبارية هناك ، فى أوائل ثمانينيات القرن العشرين ..

سمعتها وأنا أكاد أذوب من فرط حرارة الجو ، فى منتصف يوليو ..

وفى سخرية ، واجهت قائلها :

ـ أى برد هذا ؟!.. منذ جئت إلى هنا ، لم أشعر بلمحة واحدة من البرد ، فالحرارة تكاد تبلغ الأربعين فى منتصف الليل ، ناهيك عن النهار ..

تطلّع إلىّ الشيخ (إبراهيم) ، صاحب قطعة الأرض التى أقيمت عليها الوحدة الصحية ، وكأنه لا يفهم ما أقوله ، ثم قال فى حماس :

ـ انتظر حتى يأتى الشتاء ، وستنعكس الصورة تمامًا .

لم أستطع تصديق هذا أبدًا ، فى مناخ تحدّيت أحد أصدقائى بشأنه يومًا ، فقمت بقلى بيضة طازجة ، على سور الوحدة الصحية ، بحرارة الشمس وحدها ، فى منتصف نهاره ..

ثم جاء الشتاء ..

ووجدت نفسى أرتجف ..

وأرتجف ..

وأرتجف ..

درجات الحرارة انخفضت إلى حد رهيب ، حتى كادت أناملى تتجمّد فى قلب الليل ، ولم أعد أستطيع النهوض من تحت الغطاء إلا لأسباب بالغة الأهمية ، أو لحالات حرجة للغاية ..

وفى ذلك المناخ الرهيب ، قابلتها ..

(سعدية) ..

امرأة من فئة يقال لها (الحلبة) ، تنتمى على الأرجح إلى قبائل الغجر ، وتقوم مع قريناتها بخدمة أثرياء القرية ، والقيام بأعمالهم الوضيعة ، وعلى رأسها حلب الأبقار ، فى ساعات الفجر الأولى ، وربما من هنا جاءت تسمية (الحلبة) ..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت منتصف الليل ببضع دقائق ، عندما سمعت دقات على باب سكنى الخاص ، فى الوحدة الصحية ..

وعلى عكس ما اعتدته ، كانت الدقات رقيقة هادئة ، تحمل لمحة من خجل خاص ، يمكننى إدراكه بحكم خبرتى ..

وعلى الرغم من أنها كانت ليلة بالغة البرودة ، لم أشعر بأدنى لمحة من البرد ـ على عكس المعتاد ـ وأنا أخرج من تحت الغطاء ، وأقترب من الباب ، متسائلاً فى همس ، ربما ارتبط برقة الدقات :

ـ من بالباب ؟

أتانى صوتها أشبه بغناء رخيم عذب ، وهى تنطق اسمها :

ـ (سعدية) .

لم أكن قد سمعت الاسم من قبل قط ، منذ بدأت العمل فى الصعيد ، ولكننى لم أكد أسمعها تنطقه بتلك الرقة ، حتى انتابنى فضول شديد لرؤيتها ، فأسرعت أفتح الباب ، وأتطلّع إليها فى لهفة ، تحت ضوء القمر ..

ويا لَجمال ما رأيت !!..

كانت فاتنة ، بكل ما تحمله الكلمة من معان ..

سمراء ، رقيقة ، هادئة الملامح ، لها شفتان مكتنزتان ، وعينان سوداوان واسعتان ، تعلوهما رموش من أبدع ما رأيت ، وترتدى ذلك الزى البدوى المزركش ، الذى يميِّز فئة (الحلبة) ..

لم أكن قد رأيتها من قبل قط ، أو لمحت مثل هذا الجمال ، أو تصوَّرت حتى إمكانية وجوده هناك ؛ مما جعلنى أحدِّق فيها بدهشة ، أصابتها بخجل واضح ، فخفضت عينيها ، وهى تغمغم :

ـ عندى ألم فى معدتى .

لم أدرِ ماذا فعلت بعدها بالتحديد ، أو لست أذكر التفاصيل ، إلا أننى حتمًا قمت بالكشف عليها ، وشعرت بدفء جسدها الصغير ، قبل أن أقول فى اهتمام :

ـ هناك اشتباه فى الإصابة بالتهاب الزائدة الدودية .

سألتنى فى رقة بالغة :

ـ وما هذه الزائدة ؟!

أجبتها مبتسمًا :

ـ جزء من جسدنا ، ما زال يصرّ على إيلامنا ، فى أوقات لا نتوقعها .

سألتنى :

ـ وكيف نعالجه ؟!

التقطت ورقة من أوراق العيادة ؛ لتحويلها إلى أحد المستشفيات فى المدينة ، وأنا أجيب :

ـ هذا يحتاج إلى عملية جراحية .

انتفض جسدها ، وهى تقول فى ارتياع :

ـ عملية جراحية ؟!.. أتعنى أنهم سيشقون بطنى ؟!

قلت ، محاولاً تهوين الأمر :

ـ إنه مجرد شَق صغير ، والعملية بسيطة ، و ...

قاطعتنى فى صرامة :

ـ لا ..

ونهضت ترتدى ملابسها فى حزم ، فقلت فى قلق :

ـ ولكن العملية حتمية ، و ...

قاطعتنى مرة أخرى ، فى صرامة أكثر :

ـ قلت : لا .

اقتربت منها ، وقد هالنى أن يتطوَّر الأمر معها ؛ لمجرد خوفها من إجراء جراحة بسيطة ، وقلت :

ـ اسمعينى يا (سعدية) .. حالتك شديدة ، والعملية الجراحية ضرورية .

هزَّت رأسها فى قوة ، وقالت :

ـ نحن لا نُجرِى أية عمليات جراحية .

غمغمت :

ـ حتى البسيطة منها ؟!

التفتت إلىَّ بعينين مُغرَوْرِقَتَيْن بالدموع ، وهى تغمغم :

ـ أنت لا تدرى ما ستفعله العملية الجراحية .

سألتها فى خفوت :

ـ وماذا تتوقعين أن تفعله ؟!

أجابتنى ، والدموع تنهمر من عينيها :

ـ ستقتلنى .

هتفت مستنكرًا :

ـ تقتلك ؟!.. مستحيل يا (سعدية) .. لم نسمع قط عن مريض قتلته عملية زائدة بسيطة .

تطلّعت إلىّ ، وقد غرقت عيناها الواسعتان فى بحر من الدموع ، وغمغمت قبل أن تَعْدُوَ نحو باب الوحدة :

ـ ستسمع قريبًا .

اختفت من أمامى ، فهرعت خلفها ، أهتف :

ـ (سعدية) .. انتظرى .. المفترض أن ..

فى هذه المرة ، كنت أنا من قاطعت نفسى ، أو بمعنى أدق ، بترت عبارتى ، قبل أن تكتمل ..

فقد اختفت (سعدية) ..

اختفت بمعنى الكلمة ..

لم أدر أين ذهبت بالضبط بهذه السرعة ، فربما غابت وسط الأشجار المحيطة بالمكان ، أو دارت حول الوحدة ، أو تلاشى ثوبها الأسود وسط ظلام الليل ..

المهم أنها قد اختفت ..

ولما كان من العبث ، والمستحيل أيضًا ، أن أعدو خلفها ،

دون أن أعلم أين ذهبت بالضبط ، فلم أجد أمامى سوى الصعود إلى سكنى ..

والنوم ..

والعجيب أننى نمت بعمق ..

بعمق شديد للغاية ..

نمت كما لم أنَمْ منذ بدأت العمل هنا ..

وفى اليوم التالى ، بدأت إجازتى ، فسافرت عائدًا إلى بلدتى ، وحاولت أن أنسى هناك كل شىء عن (سعدية) ، وزائدتها الدودية ..

وربما نسيت ..

أو تناسيت ..

المهم أننى قضيت إجازتى ، وعدتُ بعدها إلى عملى فى الصعيد ، منتعشًا ، هادئًا ..

وما إن صدمنى تيار الهواء البارد ، حتى استعدت كل شىء ..

برد الجبال ..

وكلامها ..

وليلها الطويل ..

و(سعدية) ..

فى أول ساعة لوصولى ، أردت أن أسأل عن أحوالها ، وعما أصاب زائدتها الدودية ، ولكننى أحجمت عن هذا ؛ لأنه من الخطر فى ريف الصعيد ، أن يسأل رجل عن امرأة ..

أية امرأة ..

وليومين أو ثلاثة ، حاولت نسيانها ، عبر الانهماك فى العمل ..

ولعلى أفلحت ..

ولكن بعد منتصف ليل اليوم الرابع بدقائق قليلة ، سمعت دقاتها الرقيقة ، على باب سكنى ..

وبقفزة واحدة ، أصبحت عند الباب ..

وفتحته ..

وكانت مفاجأة ..

* * *

لم يكن هناك أحد عند الباب ..

فاجأنى هذا ولا شك ، فوقفت أحدّق فى الفراغ بمنتهى الدهشة ، وأتساءل فى حيرة ، تُرى هل سمعت دقاتها الرقيقة على الباب بالفعل ، أم إننى تمنيت هذا فحسب ؟!..

أمِن الممكن أن أكون قد سمعت الدقات لرغبتى فيها ؟!..

أمِن المعقول هذا ؟!..

مددت رأسى أتطلّع يمينًا ويسارًا ؛ بحثًا عنها ، ولكن المكان كان خاليًا تمامًا ، فعدت إلى فراشى ، وأنا أهمس باسمها دون وعى ، وما إن اندسَسْت تحت الغطاء ، حتى سمعت دقاتها مرة أخرى ..

وهذه المرة ، سمعتها بمنتهى الوضوح ..

ووثَبْت نحو الباب ..

وفتحته بحركة واحدة ..

ورأيتها ..

كانت تقف هناك ، بسمارها ، ورقّتها ، وعينيها الواسعتين ..

وبكل رقّتها ، غمغمَتْ :

ـ أشعر بألم فى بطنى .

قلت فى حنان :

ـ كلانا يعلم ما يعنيه هذا .

تجاهلتْ قولى تمامًا ، وهبطتْ إلى حيث حجرة الكشف الطبى ..

وبلا وعى ، وجدت نفسى أتابعها فى انبهار ، وهى تهبط على درجات السلم فى رقة ونعومة ، كما لو أنها ملاك جميل ..

ولحقت بها إلى حجرة الكشف ..

ودون أن أنتبه ، أعدنا كل ما حدث فى المرة السابقة ..

وعندما نهضتْ ، قلت فى حزم :

ـ هذه المرة ، أنا مصرّ على ذهابك إلى المستشفى .

سألتنى فى بساطة :

ـ ولماذا ؟!

أجبتها بسرعة :

ـ تحتاجين إلى إجراء عملية جراحية .

قالت فى حدة :

ـ لا .. نحن لا نجرى عمليات جراحية .

قلت فى ضيق :

ـ هل سنكرِّر الأمر ؟!

اغرَوْرَقَت عيناها بالدموع مرة أخرى ، وغمغمت :

ـ إنك لا تعرف ما ستفعله بى العملية الجراحية .

قلت فى حدة :

ـ لا داعى للكلام الفارغ .. هذا النوع من العمليات الجراحية البسيطة لا يمكن ...

قاطعتنى فى استمرار ، وكأنها لا تسمعنى :

ـ ستقتلنى .

رأيت عينيها الغارقتين فى الدموع ، فتجمدَت الكلمات على شفتىَّ ، ولم أحاول قول أى شىء إضافى ، فى حين اندفعت هى نحو الباب ..

واختفت ..

تمامًا كما حدث فى المرة السابقة ، كما لو أننا نعيد المشهد السابق ..

ولهذا لم يدهشنى ألا أجدها فى الخارج ..

فقط عدت إلى فراشى ..

ونمت ..

وبمنتهى العمق ..

كان توافقًا مدهشًا ، لم أنتبه إليه ، حتى فى المرة الثانية ..

فمنذ بدأت العمل فى الصعيد ، لم أنم بهذا العمق ، إلا فى الليالى التى تأتى فيها (سعدية) ..

ولقد أتت سبع مرات متتالية ..

وكل مرة ، كانت الأمور تسير على النسق نفسه ..

دقات رقيقة ..

حوار قصير ..

كشف طبى ..

اقتراح بعملية جراحية ..

رفض ..

وهروب ..

واختفاء ..

كل مرة بنفس الترتيب ..

ونفس الأحداث ..

وربما نفس الحوار ..

وبين كل مرة وأخرى ، تختفى (سعدية) لأسبوع كامل ..

على الأقل ..

وفى كل مرة أشعر بقلق عارم عليها ..

ولا أنام ..

ثم تأتى ..

وأراها ..

وأنام بعمق ..

بمنتهى منتهى العمق ..

وبعد المرة السابعة ، اختفت (سعدية) تمامًا ..

مر أسبوع ..

وثـــان ..

وثالث ..

ورابع ..

ولم تظهر (سعدية) قط ..

ولم يَعُد باستطاعتى الاحتمال ، أو حتى مراعاة القواعد ؛ لذا فقد استيقظت ذات صباح ، وقد قررت أن أسأل عنها ، مهما كان ما سيؤدى إليه هذا ..

وفى لهفة هبطتُ إلى العيادة ، وانتهزت أول فرصة ، لأسأل عم (شعبان) تمرجى العيادة :

ـ هلْ تعرف حلبية اسمها سعدية ؟!

بدت عليه علامات التفكير ، قبل أن يجيب :

ـ الاسم شائع بينهم ، أى (سعدية) منهن تقصد بالضبط ؟!

أجبته فى حذر :

ـ إنها امرأة شابة ، فى أواخر العشرينيات من العمر .

مطَّ شفتيه ، مغمغمًا :

ـ لا يمكننى تذكرها .. ولكن ربما تجيبك (فهيمة) .

و(فهيمة) هذه كانت خادمة الوحدة ، تتواجد معظم الوقت ، وتقوم بكل العمل تقريبًا ..

ولكنها امرأة ..

وستدرك حتمًا لهفتى ..

وهذا خطير ..

خطير للغاية ..

لذا ؛ كان لابد أن أضع خطة للسؤال عن (سعدية) ..

فى البداية ، بدأت أسألها عن آخرين ..

ثم أخريات ..

طرحت عدة أسماء ، زارت العيادة من قبل ، ثم التقطتُ نفسًا عميقاً ، وسألتها :

ـ و(سعدية) .. كيف حالها ؟!

التفتت إلىَّ فى دهشة ، متسائلة :

ـ أى (سعدية) ؟!

أشحت بوجهى ؛ حتى تعجز عن قراءة انفعالاتى وأنا أجيب بصوت ، خرج على الرغم منى مختنقًا :

ـ (سعدية) الحلبية .

لم أسمع جوابها لدقيقة كاملة ، فالتفتُ إليها لأجدها تحدّق فىَّ بمنتهى الدهشة ، على نحو جعلنى أسألها :

ـ ألا تعرفينها ؟!

وهنا نفضت رأسها ، قائلة :

ـ بل أعرفها ، ولكننى أتساءل : كيف عرفتها أنت ؟

قلت فى توتر :

ـ أعرف أنها تعانى من التهاب فى الزائدة الدودية .

هتفتْ :

ـ وهذا أيضًا تعرفه ؟!..

حاولت أن أتظاهر باللامبالاة ، وأنا أقول :

ـ أى طبيب بسيط يمكنه معرفة هذا .

سألتنى فى دهشة :

ـ وهل عرَفتَه من الطبيب السابق ؟!

أغضبتنى عبارتها ، ولكننى تجاهلتها تمامًا ، وأنا أسألها :

ـ المهم .. كيف حالها الآن ؟!

تطلَّعت إلىَّ لحظات فى شىء من الاستنكار ، قبل أن تقول :

ـ لقد أجرت عملية الزائدة الدودية .

هتفت :

ـ حقًا ؟!

أكملَتْ فى حزم :

ـ وماتت .

وصعقنى الجواب ..

إلى أقصى حد .

* * *

لم أستطع تصديق ما سمعته ..

(سعدية) ماتت ؟!..

وفى عملية إزالة زائدة دودية ملتهبة ؟!..

أمعقول هذا ؟!..

(سعدية) بكل جمالها ورقتها تموت ؟!..

وبهذه البساطة ؟!..

لا يمكننى أن أصف كيف هالنى الأمر وأفزعنى ، ولا كيف شعرت بالحزن والمرارة ..

(سعدية) الجميلة ماتت ؛ لأنها أطاعتنى ..

لأنها فعلت ما نصحتها به ..

وأجرت العملية الجراحية ..

الخبر صدمنى ، ورَجَّنى من الأعماق ، ومزق نياط قلبى تمزيقًا بلا رحمة ، حتى إننى لم أبال بنظرة (فهيمة) المستنكرة المندهشة ، ولا حتى بسؤالها :

ـ لماذا تأثرْتَ إلى هذا الحد ؟!

أجبتها فى مرارة وأسى :

ـ ومن ذا الذى يتجاهل موت فاتنة مثلها ؟!

هتفت بدهشة أكثر :

ـ فاتنة ؟!

ثم نهضَتْ ، متسائلة :

ـ وكيف عرفت هذا ؟!

أجبتها فى حدة :

ـ لماذا يدهشك هذا ؟!.. إننى أعرف (سعدية) جيدًا ؛ لأننى وقَّعت الكشف الطبى عليها .

هتفَتْ بصوت مرتفع :

ـ كشف طبى !

وارتجف صوتها فى شدة ، وهى تضيف :

ـ هذا مستحيل !.. مستحيل تمامًا !

صحت بها فى غضب :

ـ ولماذا مستحيل ؟!.. ألست طبيبًا ؟!

أجابتنى فى توتر بالغ :

ـ بالتأكيد ، ولكنك لم تكن هنا ، عندما ماتت (سعدية) فى العملية .

سألتها مندهشًا :

ـ ماذا تعنين ؟!

أجابت ذاهلة :

ـ (سعدية) ماتت منذ خمس سنوات .

صدمنى الجواب بشدة ، وهتفَتْ بها :

ـ أى قول مختل هذا ؟!.. (سعدية) التى أتحدَّث عنها كانت هنا منذ شهر ونصف الشهر فحسب .

هتفَتْ :

ـ مستحيل !

قلت فى إصرار :

ـ لقد فحصتُها بنفسى .

بدت حائرة مرتبكة ، وخائفة بعض الشىء ، قبل أن تقول فى عصبية :

ـ إذن ، فنحن نتحدَّث عن (سعدية) مختلفة .

قالتها ، واندفعت مغادرة السكن ، وكأنها ترفض الحديث عن ذلك الأمر ..

وبقِيت وحدى أرتجف ، من فرط الانفعال ..

مستحيل !..

ما تقوله مستحيل !..

لا يمكن أن تكون (سعدية) التى ماتت ، هى (سعدية) التى أعرفها ، والتى فحصتها بنفسى ..

لقد لمستها ، وشعرت بجسدها ودفئها ..

من المستحيل أن تكون هى !..

من المستحيل تمامًا !..

أوَيْت إلى فراشى مضطربًا ، وأنا أفكّر فيما سمعته من (فهيمة) ، وأحاول مَنْطقته ، و ...

وفجأة ، سمعت دقاتها ..

لوهلة ، خُيِّل إلىَّ أنه جزء من حلم ما ، فأرهفت سمعى ، لأسمع الدقات مرة ثانية ..

نفس الدقات الهادئة ، الرقيقة ، الخجلَى ..

وكالصاروخ ، وثبت نحو الباب .. وفتحته ..

وكانت هناك ..

(سعدية) ، بشحمها ولحمها ، وسُمرتها ، وجمالها ، وعينيها الواسعتين السوداوين ..

وقبل أن أنبَس ببنت شَفة ، همسَتْ :

ـ أشعر بألم فى معدتى .

ثم وجدتُنا هناك ..

فى حجرة الكشف الطبى ..

وجدت نفسى أفحصها ، وأتحسَّس موضع زائدتها الدودية فى حرص أكثر ، واهتمام أكبر ..

وشعرت بلمستها ..

وجسدها ..

ودفئها ..

إنها حقيقة ..

حتمًا حقيقة ..

ومرة أخرى ، اقترحت عليها أن تجرى عملية الزائدة الدودية ..

ومرة أخرى رفضَتْ فى إصرار ..

وجرَتْ ..

واختفت ..

السيناريو نفسه ، كما يحدث فى كل مرة ..

وهنا أيضًا عدت إلى فراشى ..

ونمت بمنتهى العمق ..

واستيقظت فى الصباح الباكر جدًّا ، فى حالة من النشاط

والحيوية ، لم أعهد نفسى عليها من قبل ، حتى إننى هبطت إلى عيادة الكشف الطبى ، قبل أن يصل أى من العاملين فيها ، وقبل أن ينصرف عم (حارس) الخفير الليلى ..

رأيته يلملم أشياءه ، وأنا أهبط على درجات السلم ، فألقيت عليه التحية ، وسألته :

ـ كيف حالك يا عم (حارس) ؟!

أجابنى فى حماس :

ـ فى خير حال يا دكتور .. نوم العافية .. أرى أنك نمت بعمق الليلة .

سألته مبتسمًا :

ـ كيف عرفت ؟!

أجابنى فى سرعة :

ـ لم أر ضوء حجرتك قطُّ طَوال الليل .

توقفت ؛ لأسأله فى دهشة :

ـ أأنت هنا طوال الليل ؟!

أجابنى فى حماس :

ـ بالطبع .

ملت نحوه ، وضحكت ، قائلاً :

ـ يا لك من كـاذب كبير !!.. كيف تدعى أنك هنا ، ولم أرك قط ؟!

أجابنى فى تلقائية صادقة :

ـ لأنك لم تستيقظ ، منذ أويت إلى فراشك .

قرصت أذنه ، قائلاً:

ـ خطأ أيها العجوز .. لقد هبطت لتوقيع الكشف الطبى على (سعدية) الحلبية ، و ...

قاطعتنى نظرة الدهشة المستنكرة فى عينيه ، فتوقفت لأسأله :

ـ ألا تصدقنى ؟!

أجابنى فى سرعة :

ـ لا يمكننى تكذيبك يا دكتور ، ولكننى أجهل معنى ما تقول ، فأنا لم أفارق مكانى بالفعل ، طوال ليلة أمس ، ولم أشاهد حلبية أو مغربية .. بل ولم أشاهدك تهبط إلى حجرة الكشف قط .

هتفت :

ـ عم (حارس) !

أجابنى فى حزم :

ـ صدقنى يا دكتور .. هذا لم يحدث أبدًا .

ملت نحوه فى غضب ، قائلاً :

ـ وماذا لو أيدت (سعدية) قولى ؟!

نظر إلى عينىَّ مباشرة ، وهو يقول :

ـ مستحيل يا دكتور! .. إنه مجرد حلم .. أو كابوس .

توقفت مغمغمًا :

ـ كابوس !!..

أجابنى فى حزم :

ـ نعم .. وخصوصًا أنك رأيت فيه عفريت (سعدية) .

هتفت :

ـ عفريت من ؟!

أجابنى بمنتهى الحزم :

ـ عفريت (سعدية) الحلبية ، التى ماتت فى عملية زائدة دودية منذ خمس سنوات ، وترفض مغادرة الوحدة الصحية ، منذ ذلك الحين .. لستَ أول طبيب يراها ..

وكانت هذه مفاجأة جديدة ..

مذهلة .

* * *

هل يمكنك أن تصدّق أمرًا كهذا ، لو مررت به ؟!..

مستحيل !

هذا بالضبط ما حدث معى ...

لم أصدق ما قاله (حارس) قط ..

صحيح أن الأمور كانت تتفق مع ما قاله ، خاصة وأن (سعدية) تؤدى دورها نفسه فى كل مرة ..

ولكنها تختفى فى النهاية ..

كل مرة تختفى ، بعد أن نصل إلى عبارة واحدة ..

أن العملية ستقتلها ..

لقد قضيت ذلك اليوم كله ، وأنا أفكّر فيما قاله عم (حارس) ، حتى إننى لم أستطع القيام بواجبى اليومى ، فصرفت كل الحالات غير العاجلة ، وأحلت العاجلة إلى أقرب وحدة صحية ، وأويت إلى فراشى مبكرًا ..

وتحت الغطاء والدفء ، رحت أستعيد كل ما حدث ..

أمن الممكن فعلاً أن تكون (سعدية) مجرد شبح ؟!..

شبح بكل هذا الجمال ؟!..

إننى أسمع دقاتها الرقيقة على بابى ، وصوتها الهادئ العذب وهى تصف حالتها ..

ثم إننى فحصتها بنفسى ..

لمستها ..

شعرت بجسدها ..

بدفئها ..

وهذا لا يمكن أن يحدث مع شبح ..

الأشباح لا ملمس لها ..

لا يمكننى أن أتحسَّسها ..

لا يمكن أن تكون دافئة .

ثم بدأ عقلى يستوعب الأمر ، من زاوية مختلفة ..

لماذا تصوَّرت أننى قد فحصتها بالفعل ؟!..

لماذا لا يكون هذا مجرد حلم ..

عم (حارس) يؤكّد أننى لم أهبط إلى حجرة الكشف أمس ..

ولم تكن (سعدية) هناك ..

ربما كان هذا مجرد حلم إذن ..

حلم واضح قوى ، أحياه بكل مشاعرى ، حتى يخيَّل إلىَّ أنه حقيقة واقعة ..

لقد قرأت شيئًا كهذا ..

قرأت عن أحلام تبدو أشبه بالواقع ..

أحلام يشعر خلالها المرء ، كما لو أنه يخوض تجربة حقيقية ..

ربما كان هذا مجرد حلم ..

ولكن لماذا ظهرت فيه (سعدية) ؟!..

كيف علِمتُ بوجودها ؟!..

أو بحالتها ؟!..

هذا لغز آخر ..

لغز كبير ..

ولكن النوم العميق للغاية ، الذى يترادف مع الأمر فى كل مرة ، يُرَجِّح فكرة الحلم ..

ويا له من حلم !..

حاولت أن أستعيد التفاصيل ، ففوجئت بأن هناك دومًا فجوات ، أعجَز عن تذكرها ..

لحظات ضائعة ، فى كل مرة ..

فهى تظهر عند الباب ..

ثم تصبح داخل حجرة الكشف الطبى ..

وهذا لا يتفق مع الواقع ..

بل مع الحلم ..

فى عالم الأحلام فقط ، لا تكون هناك أهمية لترتيب الأحداث ، أو حتى لمَنْطَقها ..

نعم .. على الرغم من غرابته ، فهو حلم ..

حلم زارنى فيه شبح (سعدية) ..

الفكرة كانت مفزعة ، إلا أنها دفعتنى إلى النوم ..

النوم العميق ..

النوم ، الذى استيقظت منه على صوت دقاتها الرقيقة ..

وفى لحظة كنت أقف أمامها ، وهى تقول عبارتها التقليدية :

ـ أشعر بألم فى معدتى ..

وفى اللحظة التالية ، كنا فى حجرة الكشف الطبى ..

والعجيب أننى لم أكن أشعر بالخوف ..

ولا بأدنى ذرة منه ..

كنت فقط أشعر بقلبى يهفو إليها ..

ومرة أخرى ، فحصتها ، وشعرت بملمسها ، وجسدها ، ودفئها ..

وكما يحدث دومًا ، تطلَّعت إليها ، وكدت أخبرها أنها بحاجة إلى عملية جراحية ..

ولكن فجأة ، قفزت فكرة أخرى إلى رأسى ..

ولوقت طويل نسبيًا ، تطلَّعتُ إلى (سعدية) فى صمت ، حتى سألتنى هى بصوتها الرقيق :

ـ ألن تخبرنى ماذا ينبغى أن أفعل ؟!

قلت فى خفوت :

ـ سنحاول معالجة الالتهاب .

حمل صوتها لهفة كبيرة ، وهى تسألنى :

ـ ألن يحتاج الأمر إلى عملية جراحية ؟!

كنت أعلم أنها بحاجة إلى هذا ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد أجبتها بنفس الخفوت :

ـ كلا .. سنستخدم علاجًا طبيًا فقط .

رأيت عينيها تتألقان ، وهى تقول فى شىء من السعادة :

ـ حقًا ؟!

قلت فى هدوء عجيب :

ـ نعم يا (سعدية) .. لا عمليات جراحية .

سمعتها تتنهَّد فى ارتياح غامر ، قبل أن تقول :

ـ لا يمكنك أن تتصور كم أرحتنى .

غمغمتُ :

ـ تصورتُ هذا .

دارت حول نفسها كراقصة باليه رقيقة ، وهى تقول فى سعادة جمة :

ـ منذ خمس سنوات أشتاق إلى سماع هذا !

غمغمتُ :

ـ هذا ما يبدو .

دارت حول نفسها دورة أخيرة ، ثم وقفت فى وسط حجرة الكشف الطبى ، وتطلَّعت إلىَّ فى امتنان شديد ، وهى تقول :

ـ كيف يمكننى أن أشكرك ؟!

غمغمت ، وأنا أشعر بنعاس شديد ، يسيطر على كيانى كله .

ـ إبقَىْ هنا .

هزَّت رأسها فى رقة ، وقالت :

ـ لم يعد باستطاعتى هذا .

ثم مالت نحوى ، حتى شعرت بأنفاسها العطرة ، وهى تضيف :

ـ لقد حررتنى .

العبارة عنَت الكثير .

والكثير جدًا ..

وتضاعف شعورى بالنعاس ..

تضاعف ألف مرة ، وأنا أتابعها بعينين متثاقلتين ، وهى تتجه كفراشة رقيقة نحو الباب ، قائلة :

ـ ولن يمكنك أن تتصور كم أرحتنى .

وخرجَتْ من الباب ..

وذابت وسط الظلام ، و ...

واستيقظتُ فى الصباح التالى ، بعد نوم عميق ..

عميق للغاية ..

وكانت آخر مرة تظهر فيها (سعدية) ..

وآخر مرة أراها فيها ..

ولسنوات طويلة ، حاولت كتمان هذه القصة بكل أحداثها فى أعمق أعماقى ..

ولسبب ما ، رأيت أن الوقت قد حان لأرويها ..

ربما لأن الوقت قد حان لروايتها فحسب ..

أو بسبب حلم ..

حلم راودنى ، ورأيت فيه وجهها الأسمر ..

وعينيها السوداوين الواسعتين ..

عينَى الحلبية ..

(سعدية) .

* * *

تمت بحمد الله

كوكتيل 2000

روايات مصرية للجيب

طب ليه ؟!

(مذكرات)

3ـ أبلة سهير..

عندما أراجع ذكرياتى ، بعد كل هذه السنوات ، يدهشنى ويضحكنى كثيرًا ، أن أوّل من نصحنى بالكتابة ، كان أبلة (سهير) ، مدرّسة الألعاب ، فى مدرسة الإنبابى الابتدائية ، ببلدتى (طنطا) ..

والمضحك أكثر ، أنها توصّلت إلى هذا بسبب إهمالى إحضار ثياب الألعاب ، أثناء حصتها ..

وأبلة (سهير) هذه كانت شابة لطيفة وجميلة ومرحة ، عندما كنا تلاميذ فى المرحلة الابتدائية ، وأوّل ما جذب انتباهى فيها ، هو أنها كانت تعشق القراءة ، ومن النادر أن تراها دون أن تحمل كتابًا أو مجلة ، أو تطالعها فى اهتمام ..

وأنا منذ طفولتى ، أكره الالتزام المفروض ؛ لذا فقد كان من الممكن تصنيفى بأننى تلميذ مشاغب فى هذا الشأن ، بدليل أننى وصديقى القديم والعزيز ، أستاذ الهندسة النووية حاليًا (محمد العفيفى) ، قد سبّبنا للمَدرسة ارتباكًا شديدًا ، عندما تنقّلنا من مجال إلى مجال ، فى حصة الهوايات ، خلال شهر واحد ..

ولهذا قصة ..

فعندما علمنا أنه من الضرورى أن نختار مجالاً لحصة

الهوايات ، من بين أربعة مجالات ؛ الموسيقى ، والزراعة ، والأشغال ، والتدبير المنزلى ، قررنا ـ هو وأنا ـ دون تردُّد ، أن نختار الأشغال المنزلية ..

لم يكن هذا حبًّا فى المجال نفسه ، ولكن لسبب مختلف تمامًا ..

لقد كانت والدة (محمد) ، هى مدرّسة الأشغال ؛ لذا فقد تصورنا أنها ستجاملنا ، وتفسح لنا المجال ؛ لقراءة المجلات المصورة ، التى كنا نتبادلها طوال الوقت ..

وذهبنا إلى قسم الأشغال ، فى أوّل حصة هوايات فى العام الدراسى ، وكلنا ثقة ، ولكننا فوجئنا بوالدة (محمد) تطالبنا بشراء مفارش (كانافاه) ، والعمل عليها !!..

كنا الولدين الوحيدين ، فى قسم كله بنات ، ولم نتقبل فكرة شغل الكانافاه ، وحياكة الملابس ، وخياطة الأزرار ..

فتمردنا ..

كانت والدتى قد أسرعت بشراء مفرش كانافاه ، وكأنما يسعدها هذا ، ولكننى و(محمّد) رفضنا الاستمرار تمامًا ، وأصررنا معًا على تغيير المجال ..

وعلى الرغم من جهلنا الموسيقىّ التام ، قررنا الانتقال إلى الموسيقى ..

فى البداية كان الأمر ممتعًا ، فنحن نذهب إلى فصل الموسيقى ، لنضرب على أية آلة تروق لنا ، ونصدر بعض الأصوات المزعجة فحسب ..

ولكن دوام الحال من المحال ..

فذات يوم ، فاجأتنا أبلة (جليلة) ، مدرّسة الموسيقى ، بأنه من الضرورى أن نحضر شورتًا أزرق ، وقميصًا حريريًا أبيض ، وبابيونًا أزرق ..

وتصورنا نفسنا (مسخة) الفصل ، فى زى البلياتشوهات هذا ، خاصة وأن كل منا أجهل من دابة فى هذا المضمار ..

وكالعادة ، أسرعت أمى إلى شراء زى الموسيقى ، ولكننى رفضت بشدة ، وأخبرتها أننى اتفقت مع (محمد) على تغيير المجال مرة ثانية ..

وفى هذه المرة ، انتقلنا إلى قسم الزراعة ..

كان قسمًا مملاً للغاية ، فطوال الوقت نُعِد مربَّيات ، وزجاجات شراب ، ونقوم بزراعة البصل والبطاطس ، وهذا يمنعنا من القراءة ؛ لذا فقد تعمدنا إفساد الأمر هذه المرة ، فرُحنا نأكل المربى ، ونشرب الشراب الحلو ، حتى جُنَّ جنون الأستاذ (سيد) ، فأصرّ على طردنا ..

كنا فرحين بإصراره هذا ، قبل أن ننتبه إلى حقيقة مفزعة ..

لم يعد أمامنا إلا قسم التدبير المنزلى ..

وفى يأس ، جلسنا فى حوش المدرسة ، نتخيّل أنفسنا بمريلة المطبخ ، وكل منا يطهو أحد أصناف الطعام ، وكدنا نبكى من شدة القهر ..

وفى الأسبوع التالى ، ذهبنا إلى حصة التدبير المنزلى ، لنجد أننا ـ أيضًا ـ الولدان الوحيدان فى قسم بنات ، وخشينا ما ستفعله بنا أبلة (دولت) ، قبل أن يفاجئنا موقفها تمامًا ..

فأبلة (دولت) كانت من الطراز القديم ، الذى يجد عيبًا فى أن يقوم الذكور بالطهى ، والذى يؤمن بأن هذا عمل المرأة وحدها ..

وعلى الرغم من أن هذه الفكرة غير صحيحة ؛ بدليل أن أشهر طهاة العالم من الرجال ، إلا أنها أسعدتنا تمامًا ..

ففى كل حصة تدبير ، كنا نجلس (أنا ومحمد) ، إلى جوار النافذة ، مع كومة من المجلات المصوَّرة ، ننهمك فى قراءتها ، فى حين تشترك البنات مع أبلة (دولت) فى طهى أصناف مختلفة من الطعام ، ويقتصر دورنا على تذوقه ، باعتبار أن الذكور هم أفضل متذوقين (وهذا رأى أبلة (دولت) ، وليس رأيى) ..

حصة التدبير المنزلى ، التى تجنبناها طويلاً ، كانت إذن جنَّتنا الحقيقية ..

لقد قرأنا فيها أكثر من ألف مجلة مصورة ..

والمجلات المصورة ، كانت هى السبب الرئيسى ، لارتباطى بأبلة (سهير) ..

ففى واحدة من حصص الألعاب ، التى نسيتُ فيها الزى كالمعتاد ، وجدَتْ أبلة (سهير) معى بعض القصص المصورة ، فراحت تطالعها فى اهتمام ، ونسيت أمر زى الألعاب ..

وحصة الألعاب كلها ..

ولقد التقطتُ الدرس بسرعة ، على الرغم من صغر سنى ..

ففى كل مرة ، كنت أتجاهل زى الألعاب ، وأحضر لأبلة (سهير) كومة قصص مصورة جديدة ؛ لتفادى العقاب ..

وكانت لعبة ناجحة ، إلى أقصى حد ..

وذات مرة ، نفِدَت القصص الجديدة ، فذهبت إلى الحصة دونها ..

ودون زى الألعاب أيضًا ..

وعندما واجهت أبلة (سهير) ، كان من الضرورى أن أجد وسيلة لتفادى العقاب ؛ لذا فقد أخبرتها عن قصة جديدة مثيرة قرأتها ، ولكننى فوجئت بها تسألنى عن مضمونها ، وهنا ، ولأوّل مرة فى حياتى ، وجدت نفسى أؤلف قصة ..

كان من الضرورى أن تكون مثيرة ..

مشوّقة ..

وممتعة ..

وبقدر استطاعتى ، كطفل فى سنته الابتدائية الخامسة ، رحت أؤلّف قصة ، عن تمساح من الغابة ، سار حتى أطراف المدينة ، ووجد نفسه وسط الناس ، الذين أصابهم الفزع .. ورحت أؤلف الأحداث ، على الهواء مباشرة ، بأسلوب يناسب سنى ، وأسعدنى أن أبلة (سهير) كانت تستمع لى بمنتهى الاهتمام ، فتصورت أن خطتى قد نجحت ، ولكننى ما إن انتهيت ، حتى فوجئت بها تبتسم ، وتقول :

ـ تعرف يا واد .. انت بتألّف قصص حلو قوى .. اكتب الحدوتة اللى قلتهالى دى ، وحاخليهم يحطوها فى مكتبة المدرسة ..

أيامها كانت هناك مكتبة فى كل مدرسة ، وكانت هناك حصة مكتبة خاصة ، يطالع فيها كل طفل ما يحلو له ، على أن يكتب ملخصًا عنه فى حصة تالية ..

ولقد أسعدَتْنى الفكرة للغاية ..

فكرة أن توضع قصتى وسط المؤلفات الأخرى فى المكتبة ..

وبسرعة ، ذهبت إلى والدى ، وكان يعمل أيامها فى واحدة من الشركات الخاصة ، فسايرنى فى فكرتى ، وأحضر سكرتيره الأستاذ (عبد المنعم) ، وكلّفه بكتابة قصتى على الآلة الكاتبة ،

وصنعوا لها غلافًا من بقايا دوسيه ورقىّ قديم ، ورسمت أمى الغلاف ، وذهبت بها إلى المدرسة ..

ونفّذت أبلة (سهير) وعدها ، ووضعت قصتى فى المكتبة ..

وهنا ، أصابتنى لوثة الكتابة ..

كنت أقضى ساعات فى منزلى ، أؤلف قصصًا بسيطة ، كلها إثارة وتشويق ، ثم أعطيها لأبى ليقرأها ، ويكلّف سكرتيره بكتابتها ، وصُنْع غلاف ملوّن لها ، ترسمه أمى كالمعتاد ، ثم أعطيه لأبلة (سهير) ..

ولكن فجأة ، وجدت أبى وأمى يعترضان على إضاعة الوقت ، باعتبار أن العام الدراسى يوشك على الانتهاء ، وأصرًا على توقفى ، واهتمامى بدراستى ..

وتوقّفت بالفعل ..

توقّفت عن إعطاء القصص لأبى ، وأمى ..

وحتى لأبلة (سهير) ..

ولكننى لم أتوقّف عن كتابتها ..

وحتى يومنا هذا ، ما زلت أحتفظ بعدد من الكراسات البسيطة ، التى تحوى عشرات القصص البسيطة ..

ومع مرور الوقت ، راح فكرى ينضج أكثر ، وأسلوبى يتطور إلى الأفضل ..

وفى المرحلة الإعدادية ، تشاركت مع زميلى (أسامة أبو طالب) فى كتابة عدد من القصص المصورة ، التى نكتبها ونرسمها معًا ..

وفى مرحلة ما ، بدأت لعبة غريبة ..

كنت مغرمًا بقراءة وشراء المجلات المصورة ؛ لذا فقد رحت أقص فى عناية بعض الرسوم ، وأعيد ترتيبها ؛ لأصنع منها قصة جديدة ..

وكانت سجادة صالة منزلنا ، هى مخبأ رسومى الخاصة ، وقبل يوم التنظيف الأسبوعى كنت أخفيها فى مخبأ آخر ، ثم أعيدها فى اليوم التالى ..

ثم ، ومع صعوبة الأمر ، فكّرت فى أن أعيد رسم تلك الرسوم ، بدلاً من قصها من صفحات المجلات .. وهنا كشفت لأوّل مرة موهبة الرسم ..

فلقد فوجئت أمى برسومى ، وأبدت اهتمامًا شديدًا بها ، وأخبرتنى أنها جيدة جدًا .. ومنذ ذلك اليوم ، بدأت تهتم بتنمية مهاراتى ، فى هذا الجانب ..

وبفضلها ، بدأت أرسم بعض القصص المصورة ، من خيالى المحض ..

لم تكن النتائج جيّدة فى البداية ، ولكنها أصبحت كذلك مع

مرور الوقت .. ولكننى تعرَّضت للكثير من السخرية والمضايقات ، من بعض الزملاء ، الذين يفتقرون تمامًا إلى أية مواهب أدبية أو فنية ..

وكان علىَّ أن أصمد ..

وأواصل ..

كل ما اختلف هو أننى بدأت أحتفظ بقصصى ورسومى سرًا ، وأملأ بها مجموعة جديدة من الكراسات ، وأيضًا ما زلت أحتفظ بها حتى يومنا هذا ..

وذات يوم ، شاهد أحد أقاربى ما أكتبه وأرسمه ، وكاد يستلقى على ظهره من شدة الضحك ، وقال لى عبارة ، ما زلت أذكرها حتى يومنا هذا :

ـ انت فاكر نفسك مؤلِّف ؟!..

المدهش والمضحك ، أن قريبى هذا يتباهى فى كل مكان الآن ، باعتباره أحد أقاربى ، بعد أن أصبحت كاتبًا بالفعل ..

ولكنه جعلنى أخفى أعمالى أكثر وأكثر ..

وفى الصف الأوَّل الثانوى ، لم يكن يعرف بما أفعله ، سوى عدد قليل للغاية من الأصدقاء ، حتى إننى عندما قرأت عن مسابقة يقيمها قصر ثقافة طنطا لكتابة القصة ، كتبت قصة (النبوءة) سرًا ، وتقدَّمت بها ، دون أن أخبر أحدًا ، حتى أسرتى نفسها ..

وفوجئت بقصتى تفوز ..

وكانت أوَّل مرة ، تعترف فيها أية جهة ، بموهبتى فى الكتابة ..

وكانت البداية الحقيقية ..

فالجائزة ، التى لم تكن سوى مجلَّد (سمير) ، شجَّعتنى على أن أواصل الكتابة ، وأواصل المحاولة ، وأكتسب ثقة أكبر فى نفسى ، بحيث بدأت أضع اللَّبِنات الأولى لكل ما أكتبه الآن من قصص أو روايات ..

ولقد انهمكت أيامها فى قراءة القصص البوليسية ، وبهرنى أسلوبها ، وشُغِفْتُ بها ، وبدأت أكتب لنفسى نوعيات شبيهة ..

ولكن العجيب أن أكثر ما أثَّر فى حياتى ومستقبلى وأسلوبى ، لم يكن رواية ، أو قصة ، أو حتى أقصوصة ..

كان واحدة من المجلات المصورة ، التى شغفت بها طَوال عمرى ..

مجلة (تان تان) ..

فمنذ عددها الأوَّل ، انبهرْتُ بها بشدة ..

انبهرت بطباعتها الأنيقة ، ورسومها الرائعة ، وشخصياتها المثيرة ..

والأهم .. بسيناريوهاتها الدقيقة المتقنة ، ذات الفكر العميق ،

والأسلوب المشوّق ، والبعد الاجتماعى والسياسى المدهش ..

منها تعلّمت أن القصة المصورة من الممكن أن تكون عملاً كبيرًا وعملاقًا ، لا مجرّد تسلية للأطفال ..

أيامها حلمت ، وما زلت أحلم ، بإنتاج مجلة مصورة للشباب (لا للأطفال) على هذا المستوى الراقى ..

وتعلّمت أسلوبًا جديدًا فى الكتابة ..

أسلوبًا ينقل الصورة ، فى شكل كلمات أدبية بسيطة الأسلوب ، وقوية التأثير والتعبير ، ومثيرة ومشوّقة ، فى الوقت ذاته ..

وقررت أن تكون كتاباتى هى قصص مصوَّرة ، لا تحوى رسمًا واحدًا ، وإنما تخلق صورة وهمية خيالية ، فى ذهن القارئ ..

صورة تجعله يعيش الأحداث وهو يقرؤها ، وكأنه يراها ..

وأتعشّم أن أكون قد نجحت فى هذا ..

ولو أننى نجحت ، فلا يمكننى أن أنسب الفضل ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، إلا لعائلتى ، ومجلة (تان تان) ، و ... أبلة (سهير) .

* * *

مسرح الشباب :

جمعية الحرنكش

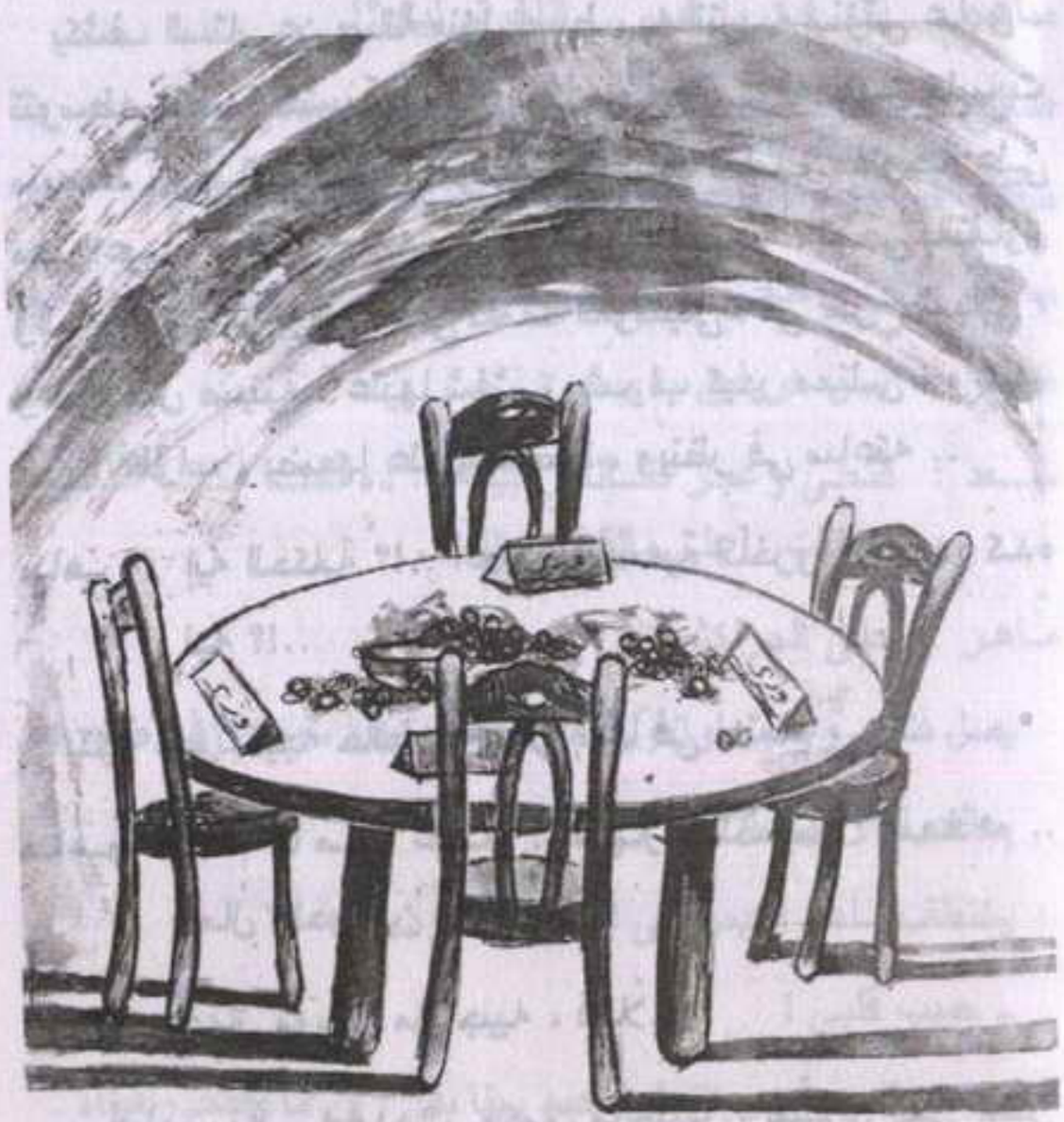

الفصل الأوَّل

المشهد الأوَّل

يكشف الستار عن صالة منزل بسيط ، به أنتريه منزلى عادى ، تتوسطه منضدة خشبية ، وفى الركن بوفيه ، فوقه جهاز كاسيت متوسِّط ، وهناك نافذة فى مواجهة المشاهد تمامًا ، مفتوحة على مصراعيها ، والمسرح كله مضاء بأضواء مبهجة ، توحى بالتفاؤل والمرح ، وماهر يرقص على نغمات الموسيقى ، فى مرح شبابى ، وهو يحمل صينية ، عليها شفشق شراب كبير ممتلئ ، وعدد من الأكواب ، يضعها على المنضدة ، وينظر فى ساعته ..

ماهر : إيه الحكاية ؟!.. أعضاء الجمعية اتأخروا النهاردة كده ليه ؟!..

يتجه نحو نتيجة حائط ، وينظر إليها فى اهتمام ..

ماهر : لأ .. أنا مش غلطان .. النهارده الخميس .. معادهم .. أمال راحو فين .

يخرج جهاز موبايل من جيبه ، قائلاً :

ـ أديلهم رنة .. إيه ده ؟.. وكمان ماعنديش رصيد .. أبقى افتكر بقى أشترى كارت أول الشهر .. ده لو فيه فلوس .

نسمع ضجيجًا وضحكًا شبابيًا ، من خارج المسرح ، قبل أن يرن جرس الباب ، فيسرع ليفتحه ، ويهتف :

ماهر : انتو فين يا غجر .. اتأخرتم ليه ؟!

صلاح : الحرنكش .. كله م الحرنكش يا عم ماهر .

ماهر فى جزع : اوعى تقوللى ماجبتوش يا سى صلاح .

سعد : ودى تيجى .. ده حتى القعدة من غيره ماتجوزش .

ماهر : أمال هو فين يا سعد .

سعد : فتحى وعمر طالعين بيه .. ده أحنا دخنا السبع دوخات ، على مالقينا هولك ..

ماهر : حتى الحرنكش ؟!

يصل فتحى وعمر ، والأوَّل يحمل كيسًا ورقيًّا ، ويقول فى ضجر:

ـ الحرنكش وصل .

يختطف ماهر الكيس فى لهفة ، قائلاً :

ـ حبيب قلبى !

عمر : للدرجة دى ؟! طب احمد ربنا بقى ، إن أنا وفتحى لقيناه .

ماهر : وأكتر من كده كمان .. وهو جمعية الحرنكش ينفع تجتمع ، من غير الحرنكش ياغجر ؟!

يهتفون معًا الجميع : حرنكش .. حرنكش .. إلى الأبد !

ماهر : وطى صوتك يا جدع منك له .. الجيران اشتكوا م الدوشة اللى بتعملوها .

صلاح : الله .. انت حتكتم نفَسنا ولاَّ إيه ؟!.. يا عم ده يوم واحد فى الأسبوع اللى بنجتمع فيه .. خلينا براحتنا بقى يا جدع .

ماهر : طب والجيران ؟!

سعد : إنتو اللى بيتكم حيطانه ورق .. المرة اللى فاتت كنا سامعين جارتكم وهى بتحمّى ابنها ، وقاعدة تقوله : بس يامجرم .. اهمد شوية .. غرقتنى .

ينظر إليه ماهر فى دهشة :

ماهر : بس جارتنا مش مخلفة !

فتحى : آآه .. بيقى كانت بتكلم جوزها .

ماهر : جوزها مخبر فى الداخلية ، وكان نبطشى الخميس اللى فات .

عمر : بيقى بقى ...

يقاطعه صلاح : ربنا أمر بالستر .

سعد : خلينا فى الحرنكش .

يفرغ الكيس على المنضدة ، ويبدءون فى الأكل فى نهم ..

عمر : املوا بطنكم كويس .. الإسبوع الجاى مافيش حرنكش .

ماهر (فى فزع) : ليه بقى ؟!

فتحى : عشان خلاص .. بح .. الميزانية خرّمت .

ماهر : مش حتكفى حتى الحرنكش ؟!

صلاح : وانت فاكره رخيص .. ماعدش فيه حاجة رخيصة فى الزمن ده .

عمر : لأ .. فيه .

سعد : إيه بقى ؟!

عمر : إحنا .

ماهر : والله عندك حق .. أدينا أهو .. خمس شباب زى الورد ، اتخرجنا بشهادات عليا ، ومش لاقيين وظيفة تلمّنا .

فتحى : ماهو من خيبتنا .

صلاح : لأ ، وانت الصادق .. من غُلبنا .. لا ابونا وزير ، ولا حتى غفير .. كلنا أهلنا على قد حالهم ، ولحافهم ما بيكفيش حتى يغطى رجليهم ..

سـعد : طب وإنت مالك ومالنا بقى .. إنت مش اشتغلت النهارده ؟!

مـاهر : الله .. إنت اشتغلت يا صايع ؟!.. وماتقولليناش .

صلاح : كلهم عارفين ، ماعدا انت .

مـاهر : واشمعنى أنا .

عمـر : عشان قال لنا فى السكة ، وإحنا جايين عليك يا فالح .

مـاهر : المهم واحد مننا اشتغل أخيرًا .. والله بشرة خير يا ولاد .. إلهى يارب نشتغل كلنا ، ونفض جمعية البطالة دى بقى !

صلاح : يعنى ..

مـاهر : شكلك كده مش مبسوط م الشغلانة الجديدة .

صلاح : أصلها مش مناسبة لدراستى .

عمـر : ودراسة التاريخ دى حتشغلك إيه بقى ، إن شاء الله ؟!

سـعد : أنا أخويا خريج علوم قسم جولوجيا ، واشتغل موظف حسابات .

مـاهر : وانت اشتغلت إيه يا صلاح ؟

صلاح : هوم دليفرى .

يصمتون جميعًا لحظات مصدومين .

سـعد : أهى حاجة تاريخية برضه .

فتحى : المهم تطلع منها بقرشين كل شهر والسلام .. أنا مستعد أشتغل فى الفاعل ، بس أبطّل آخد مصروف من أبويا .. ده كل يوم يسمعنى كلمتين يسموا بدنى .

عمـر : أمال انا اعمل إيه ؟!.. أبو خطيبتى إدانى إنذار أخير .. يا أشتغل وأقدر افتح بيت ، خلال ست شهور ، يا حيرجّع لى الدبل .

صلاح : أنا مريت بالموقف ده قبلك ، بس كان حظى أحسن منك شوية .

عمـر : إزاى ؟

صلاح : لما خطبت ، رحنا أنا وهى نشوف شقة .. المقاول الله يكرمه ، شال عنى الهم كله .

سـعد : إداك شقة ؟!

صلاح : لأ .. اتجوزها هو !

فتحى : أنا عشان كده شايل موضوع الجواز ده من مخى خالص .. لما اخلّص الماجستير ، أبقى افكر فيه .

ماهر : ماجستير إيه يابنى بس .. البلد دى مش بتاعة شهادات صحيح .. إنت صدقت دسوقى افندى وللا إيه ؟!

صلاح : ثم إن فيه واحد حكيم قال : وراء كل عظيم امرأة .

عمر : وفيه واحد قال وراء كل امرأة عظيمة رجل .

سعد : ده واحد حكيم برضه ؟

عمر : لأ .. واحد كمسرى .

فتحى : أدينى باضيع فيه وقت ، لحد ما الاقى شغل .

نسمع فجأة ضحكة (سنية) جارتهم ، عابثة مرتفعة ..

ماهر : دى سنية ، مرات جارنا متولى المخبر .

عمر : هو جوزها نبطشى النهارده كمان ؟!

ماهر : لأ .. هنا .

سعد : يا بختك .

صلاح : وانت مش ناوى تخطب بقى يا ماهر ؟

ماهر : منين يا حسرة !

عمر : على الأقل عندك شقة .

ماهر : دى شقة أوضة وصالة ، كنت عايش فيها مع أبويا وأمى ـ الله يرحمهم ـ بالتيلة .

فتحى : أنا لو منك ، كنت بعت التيلة كمان .

سعد : طب ماتتجوز فيها ، لحد ما تلاقى شقة أوسع .

ماهر : ومين حترضى ؟!.. ولو لقيت اللى ترضى تسكن فى حُق ، حاجيب مصاريف الجواز منين ؟!

عمر : بالذمة دى دولة دى ، اللى الشباب فيها بيقى طاقة معطلة ومكبوتة كده ؟!

صلاح : ما هو كل ما نتكلم ، يقولولنا زيادة السكان .. نتكتم .

سعد : ما لها زيادة السكان ؟!.. ما الصين قدنا عشر مرات ، ورغم كده بتستفيد من كل مخلوق .

ماهر : العيب فى النظام يا باشا .

فتحى : تعرفوا أنا لو مسكت البلد دى كنت أخليها دولة عظمى .

سعد (ضاحكًا) : تصوَّر بقى ، لو تبقى الدولة كلها جمعية حرنكش ؟!

عمر : وليه لأ ؟!.. وكل واحد مننا يمسك له وزارة ، بدل ما إحنا قاعدين عاطلين كده !

صلاح : وزارة مرة واحدة ؟!

عمـــر : وفيها إيه ؟! ماهو كل واحد بيبقى وزير .. افترض يا أخى إن جمعيتنا بقت الحزب ، والوزرا لازم يطلعوا منها !

مـاهر : ساعتها أمسك أنا وزير التموين ، وأغرق البلد حرنكش !

فتـحى : وأنا أمسك وزير داخلية !

ســعد : إشمعنى ؟!

فتـحى : عشان هو اللى طايح فى البلد .. لا حد بيسأله بيعمل إيه ، ولا ليه .

عمـر : وانت بقى عايز تطيح ؟!

فتـحى : اسكت يا مواطن ، لأعتقلك !

مـاهر : من أولها كده ؟!

عمـــر : وليه انا ابقى مواطن .. أنا راخر حأبقى وزير !

ســعد : وزير إيه بقى إن شاء الله ؟!

عمـر : وزير المسخرة !

يضحكون ..

مـاهر : هو فيه وزارة للمسخرة ؟!

عمـــر : أكيد .. افتح التليفزيون وأنت تعرف .

صلاح : وله انت وهو .. هات ورقة وقلم .

ماهر : إشمعنى ؟

صلاح : حنقسّم الوزارة !

يحضر ماهر ورقة وقلمًا ، ويقول فى حماس :

- بيقى انت بقى تمسك وزير تخطيط ، وعمنا سعد ، بيقى وزير أوقاف !

فتحى : يعنى مالقيتش غير الأوقاف ؟!

ماهر : أعمل له إيه ؟!.. ما هو الوحيد اللى مربى دقنه فينا .

يمسك صلاح الورقة والقلم ، ويبدأ ماهر فى صب المشروب من الشفشق فى الأكواب ، وصلاح يكتب ، قائلاً :

- الاجتماع الأوّل لجمعية الحرنكش ..

وهنا تنطلق ضحكة رقيعة أخرى ، حاملة صوت سنية ، فيقول ماهر لعمر فى حزم :

- شوف شغلك يا وزير .

ســـــتار

المشهد الثانى

يكشف الستار عن منزل شعبى ، والصالة بها طاقم كنب عربى ، وكلها ملاصقة للجدار ، ونافذة نصف مغلقة فى المواجهة ، يجلس إلى جوارها متولى المخبر ، وهو يصغى فى انتباه ، ويدوّن أشياء فى ورقة كبيرة ، وإلى جواره جريدة مبسوطة ، ونسمع صوت زوجته سنية ، من خارج الكادر :

سنية : سى متولى .. يا سى متولى !

يشير هو بيده ، وكأنه يدعوها إلى الصمت ، دون أن يلتفت ، فتدخل هى المسرح ، فى قميص نوم شعبى ..

سنية : إيه يا سى متولى .. مش حتيجى تشوف شغلك ؟!

متولى : ما انا باشوف شغلى أهو يا ولية .

سنية : الشغل جوه ، مش هنا يا سبع البرومبة .

متولى : اسكتى يا سنية .. خلينى أعرف اسمع كويس .

سنية : هو الشاب اللى جنبنا مشغل مزيكة وللا إيه ؟

متولى : مزيكة إيه ؟.. دول بيتكلموا عن وزارة ، وتغيير .. كلام كبير .. كبير قوى يا ولية .

سنية فى دلال : طب مش تيجى تشوف شغلك الأوّل ، وبعدين تشوف الكلام الكبير ده .

متولى : هو فيه شغل أهم من كده يا ولية ؟!

سنية : نعم .. نعم .. لأ ياسى متولى ، لو الموضوع كده ، يبقى تروح نبطشيتك بقى .. وأنا حاتصرّف .

متولى : قوليلى يا سنية .. مين بييجى عند الجدع جارنا ده ؟

سنية : أهو شوية شبان من سنة كده ؟

متولى : شبان شكلهم إيه كده .

سنية فى حذر : زى أى شبان .

متولى : أيوه .. شكلهم إيه يعنى ؟!.. قصيرين ؟!.. طوال ؟!.. بدقن ؟!.. من غير دقن ؟!

سنية : فيه واحد منهم بدقن .

متولى (يقفز من مكانه فى حماس) : أنا كنت متوقّع كده .. تنظيم .. تنظيم محظور يا سنية !

سـنية (فى حيرة) : طب ويتحظر ليه ؟!.. تحـت أى كوبرى ، ويصرّف نفسه !

متولى : محظور يعنى ممنوع يا ولية .. مش قانونى .

سـنية : ولا فاهمة حاجة .

متولى : مش مهم يا وليـة .. مش مهم .. قوليلى .. بيجيبوا حاجة معاهم ؟!

سـنية (تفكّر بضع لحظات فى اهتمام) : هما كل مرة ، بييقـوا شايلين كيس ورق ، ومحرّصين عليه قوى .

متولى (يقفز مرة أخرى فى حماس) : ذخـيرة .. أسـلحة وذخيرة .. مش بأقولك موضوع كبير يا سنية ؟!

سـنية : وده حلو وللا وحش ؟!

متولى : ماشوفتيش معاهم ورق كده ؟

سـنية : مجلات يعنى ؟! أيـوه شفت .. مرّة واحد منهم كان شايل ظرف كبير .

متولى (يتحرّك فى المكان فى حمـاس مـتزايد) ... وكمـان منشورات .. الله الله .. الموضوع كبر قوى !

سـنية : وده برضه كويس وللا وحش ؟

متولى : دى فيها مكافأة يا سنية .

سـنية : ربنا يكافأك .

متولى : وترقية .

سـنية : ربنا يرقيك .

متولى : وشريطة .

سـنية : ربنا يشرّطك .

متولى : المهم الموضوع يبقى مظبوط .

سـنية : التشريط ؟!

متولى : لأ .. البلاغ .. تعرفى عددهم قد إيه يا سنية ؟

سـنية : ييجى أربعة .. خمسة .

متولى : لأ .. ماينفعش كده يـا وليـة .. لازم المعلومـات تبقـى دقيقة .. أربعة وللا خمسة ..

سـنية : باينّهم خمسة .

متولى : عظيم .. خمسة .. وبدقن .. وأسلحة .. ومنشورات .. وتشكيل وزارى .. كده بيقى فيها ترقية مية مية .

متولى (يسرع إلى الهاتف) : جهزى نفسك يـا ولية .. حتبقى مرات صول قد الدنيا .

سـنية (فى قلق) : وحتاخد نبطشيات برضه ؟!

متولى (يمسك سماعة الهاتف فى اهتمام) : آلو .. المديرية .. أيوه يا فندم .. أنا متولى سيادتك .. عايز أبلّغ عن تنظيم لقلب نظام الحكم .

ســـــتار

نهاية الفصل الأوَّل

الفصل الثانى

المشهد الأوَّل

يكشف الستار عن حجرة صغيرة ، بها مكتـب خشبى ، ويقف فيها شرطى وقفة انتباه ، ثم يدخل ضابطان ، فى ملابس مدنيـة ، أحدهما يبدو متغطرسًا ، وهو (حسـام) ، والآخر أشبه بالمسطول (عماد) ، ويجلسان عند المكتب ..

حســـام : هات المتهمين واحد واحد يا عسكرى .

العسكرى : تمام يا افندم .

يختفى لحظات ، ويعود مع صلاح ، الذى يبدو مذعورًا .

حســـام (فى صرامة) : اسمك وسنك ومهنتك .

صـــلاح : اسمى صلاح ، عندى خمسة وعشرين سنة .. وباشتغل هوم دليفرى .

عمـــاد : يعنى إيه ؟

صـــلاح : يعنى باوصّل طلبات للمنازل .

يميل الضابط على زميله ..

عمـــاد : شايف ولاد الخبيثة .. كده يقدروا يدخلوا كل البيوت ، ويعرفوا كل الأسرار ..

حســـام : مين دلك على الشغلانة دى ؟!

صـــلاح : الفقـر .

حســـام : آه .. ده انت شيوعى بقى .

صـــلاح : لأ .. هوم دليفرى .

عمـــاد : انت حتستعبط يا روح خالتك .

صـــلاح : أبدًا والله .. لو بتسموها كده عندكم يبقى ماشى .

حســـام : مكتوب فى الورق ده إنك اللى بتخطط للتنظيم .

صـــلاح : تنظيم إيه يا باشا ؟!

عمـــاد : تنظيم الحرنكش .. وقلت لك ماتستعبطش .

صـــلاح : ده مش تنظيم سيادتك .. دى جمعية .

حســـام : آه .. سـجّل الاعـتراف ده بسـرعة .. اعـترّف إنـه عضو فى جمعية سرية .

صـــلاح (فى ذعر) : سرية ؟! لأ .. مش سرية ولا حاجة !

حســـام : يعنـى دى جمعيـة رسـمية ، مشـهرة فـى الشـئون الاجتماعية ، وعليها إشراف م الدولة ؟

صـــلاح : لأ يا باشا .. دى حاجة كده على قدّنا .

عمـــاد : يبقى تنظيم سرى يا روح خالتك .. وانت بقـى وزير التخطيط فيه .

صـــلاح : لا تخطيط ولا حاجة يا باشا .. دا إحنا كنا بنهرّج .

حســـام : يا سلام .. بتهرجوا بنظـام وتخطيط وتشكيل وزارى جديد ؟!.. دى خطة واضحة لقلب نظام الحكم .

صـــلاح : قلب إيه ، ونظام حكم إيه يا باشا .. هو إحنا عارفين نقلب حياتنا ، لما حنقلب نظام حكم ؟!.. دا احنا بعيد عنك عواطلية .

عمـــاد : شوف الكدّاب .. مش لسه معترف إنك بتشتغل .

صـــلاح : ودى شـغلانة يـا باشـا ؟!.. ده أنـا خريـج آداب قسـم تاريخ .. أشتغل هوم دليفرى ؟!

حســـام : لأ طبعًا ، عشان كده غضبت وعملت تنظيـم منـاهض للحكم .

صـــلاح (فى حيرة) .. أنا مش فاهم حاجة !

عمـــاد : خلاص يا حبيبى .. إحنا نفهمك .. يا عسكرى !

العسكرى : تمام يا فندم .

عمـــاد : خده فهمه .. فهمه كويس قوى !

يمسكه العسكرى من قفاه ، ويجره خارج المسرح ، وهو يقول فى صرامة :

ـ انجر قدامى يا متهم !

حســـام : وفهم الباقيين كمان .. ماتجيبهومش إلا لما يفهموا .

العسكرى : تمام يافندم .

يخرج مع صلاح من المسرح ، ونسمع صوت صفعات قوية من الخارج ، مع صرخات صلاح وماهر ، وسعد ، وفتحى ، وعمر ، ثم يدخل العسكرى ، وهو يجر فتحى ، الذى يضع يده على قفاه فى ألم ..

حســـام : هه .. فهمته يا عسكرى !

فتـــحى : فهمنى وبس .. ده أنا قفايا يتقلى عليه بيض يا باشا !

عمـــاد : اسمك وسنك ومهنتك .

فتـــحى : اسمى فتحى .. خمسة وعشرين سنة .. ومهنتى عاطل .

حســـام (فى سخرية) .. عاطل ليه يا روح أمك .. أنت مش وزير ؟!

فتـــحى : أنا وزير ؟!

عمـــاد : أيوه .. وزير داخلية .

فتـــحى : العفو يا باشا .. أنا آجى إيه جنب سيادتك ، وسعادته و .. والبيه العسكرى .

حســـام : الورق اللى قدامنا بيقول كده .

فتـــحى : ده لعب يا باشا .. مش جد .

عمـــاد : لعبة اسمها جمعية الحرنكش .. مش كده ؟

فتـــحى : بالضبط يا باشا .

حســـام : قوللى يا فتحى .. الحرنكش ده بيرمز لإيه ؟

فتـــحى : لإن مامعناش فلوس .

عمـــاد : بطل استعباط لأقوم الطّش لك .. وجاوب بأدب .

فتـــحى : أمرك يا باشا .

عمـــاد : لما اخترتم الحرنكش رمز للتنظيم .. كان بيرمز لإيه ؟

فتـــحى : مش فاهم .

حســـام : لكـن إحنـا فـاهمين .. الحرنكـش لمـا يكـبر يبقـى طماطم .. والطماطم حمرا .. يعنى رمز الشيوعية .

فتـــحى : والشيوعية دى معناها إيه ؟!

عمـــاد : إن مامعاكش فلوس .

فتـــحى : يبقى صح يـا باشـا .. إحنـا كلنـا عـاطلين ، ومـا حيلتناش اللضه .

حســـام : ده الشكل الظاهرى بس .. إنما أنا واثق إن الحرنكش ده رمز لحاجة تانية .

عمـــاد : حاجة زى إيه ؟

حســـام : الحرنكش فاكهة شعبية ، وده معناه إنهم ثورة شعبية .. حتطلع م الشعب .

عمـــاد : كمان .. يا نهاركم إسود .. عايزين تقلبوا الشعب كله .

فتـــحى : شعب مين بس يـا باشـا ؟!.. الحرنكش ده بالكتيـر يقلب المعدة .

حســـام (يتحفز) .. إيه المعدة دى .. بترمز لإيه ؟!

فتـــحى (فى دهشة) .. بترمز لإيه ؟!.. معدة يـا باشـا .. بطن .. كرش .. حتكون بترمز لإيه ؟!

عمـــاد : والله مانعرفش .. وزير التمويـن بقـى يشرح لنـا .. يا عسكرى .. خد ده كمل تفهيمـه ، وهات لنـا البيه اللى عامل فيها وزير تموين .

يمسكه العسكرى من قفاه ، ويجره خارج المسرح ..

العسكرى : انجر قدامى يابتاع الداخليـة .. أنـا حـافهمك مـن هنـا للوزارة !

عمـــاد : ده باين عليه تنظيم كبير قوى .

حســـام : وخطير قوى .

يدخل العسكرى ، وهو يجر ماهر ..

حســـام : إنت ماهر ؟!

مـاهـــر : أيوه يا باشا .. خمسـة وعشرين سنة .. وعاطل عن العمـل .

عمـــاد : وحتقول لنا الحرنكش بيرمز لإيه ؟

مـاهـر : سيادتك عايزه يرمز لإيه ؟!

حسـام : آه .. ده حيتعبنا معاه .

عمـــاد : إنت ياله مش وزير التموين ؟!

مـاهـر : أصل أنا اللى بأحضّر العشا والمشروبات .

حسـام : مشروبات .. وبتشربوا إيه بقى فى اجتماعاتكم ؟

مـاهـر : حاجات عادية يعنى .

عمـــاد : زى اللى بيبعتهالنا الحاج محمود .

حسـام : يا نهاركم أسود .. بتشربوا حاجات من دى يا صيع ؟!

ينقل ماهر نظره فى دهشة بين الضابطين ..

حسـام : وبتعملوا إيه كمان إن شاء الله ؟!

مـاهـر : أهو .. بنتكلم .. بنتفرج على فيلم .

حسـام : فيلم إيه بالضبط ؟

عمـــاد : زى الأفلام اللى بيبعتهالنا الحاج محمود .

حسـام : يا نهاركم مش فايت .. أهو دى تهمة لواحدها .. عارف لو ظبطنا حاجات من دى عندكم ، فيها قضية آداب يا كلاب .. تلاقيكم كمان بتدخّنوا ؟

عمـــاد : دخان من اللى بيبعتهولنا الحاج محمود .

حسـام : الله .. الله .. وآدى قضية مخدرات كمان .. كل ده ومش عايز تقول الحرنكش بيرمز لإيه ؟!

مـاهـر : طب وشرف سعادتك ما أنا فاهم حاجة !

عمـــاد : كده .. طب خده فهمه تانى يا عسكرى .

يسحبه العسكرى فى خشونة ..

العسكرى : انجر يا متهم .. انجر !

مـاهـر : طب بس ثانية واحدة .. أسأل البيه الضابط سؤال واحد .

حسـام : هاته يا عسكرى .. هه .. حتعترف ؟

مـاهـر : لأ يا باشا .

عمـــاد : أمال إيه ؟!

مـاهـر : كنت عايز عنوان الحاج محمود .

حسـام (فى ثورة) : خده فهمه يا عسكرى .

يجره العسكرى فى عنف للخارج ، ويختفى لحظات ، ثم يعود مع عمر ..

عمـــاد : أهلاً بوزير المسخرة .

عمـــر : هو فيه مسخرة أكتر م اللى إحنا فيها دى يا باشا ؟!

حســـام : احترم نفسك يا متهم .

عمـــر : حاضر يا باشا .

عمـــاد : اسمك عمر ، وسنك خمسة وعشرين سنة ، ومهنتك إيه ؟!

عمـــر : عاطل يا باشا .

حســـام : جمعية الحرنكش دى بتجتمع ليه يا بتاع المسخرة ؟

عمـــر : أهو .. بنرمى همنا على بعض يا باشا .

عمـــاد : والهم ده بيترمى فى تشكيل وزارة جديدة ؟!

عمـــر : مسخرة يا باشا .. حنعمل إيه يعنى ؟!

حســـام : العبوا أى حاجة .. كوتشينة مثلاً .

عمـــر : لو كنا بنلعبها ، كنتم مسكتونا بتهمة القمار .

عمـــاد : العبوا شطرنج يا أخى .

عمـــر : ماينفعش .

حســـام : ليه بقى ؟

عمـــر : عايز تفكير .

حســـام : وهو المطلوب .

عمـــر : مطلوب إيه بس يا باشا .. هو عاد فيه حد بيفكّر فى البلد دى .. شوف سيادتك القوانين نفسها ، اللى بتطلع كل يوم ، وللا القرارات الوزارية ، وللا حتى نظام المرور .. حتلاقى مافيش حد بيفكّر .

عمـــاد : فكروا انتو يا أخى .

حســـام : يعنى عايز تقنعنا إن كل التنظيم ده من غير تفكير .

عمـــر : تنظيم إيه يا باشا ؟!

عمـــاد : الحرنكش .. جمعية الحرنكش .

عمـــر : ودى تبقى تنظيم ؟!.. دى حاجة عملناها من غلبنا .

حســـام : آه .. رجعنا لموضوع الشيوعية .

عمـــر : أنا سمعت الكلمة دى قبل كده ، فى فيلم كوميدى .

عمـــاد : مش فى روسيا يعنى ؟!

عمـــر : روسيا ؟!.. وأنا إيه اللى يودينى روسيا ؟!

حســـام : أمال الأوامر بتجيلك هنا ؟!

عمـــر (بمنتهى الحيرة) .. الشهادة لله .. أنا مش فاهم أى حاجة !

عمـــاد : خلاص يا روح خالتك .. نفهمك .. خده يا عسكرى .

يسحبه العسكرى فى خشونة ..

حســـام : وبعدين بقى .. مش حنعرف نطلع منهم باعترافات صريحة وللا إيه ؟

عمـــاد : الحقيقة مش لاقى حاجة واضحة لحد دلوقتى .

يدخل هنا العسكرى ، وهو يجر سعد الملتحى ..

حســـام : آه .. وضحت الرؤية .

عمـــاد : فهمت .

حســـام : اسمك وسنك ومهنتك يا متهم .

ســـعد : اسمى سعد .. ستة وعشرين سنة .. بدون عمل .

عمـــاد : واضحة .

عمـــاد : كلهم خمسة وعشرين سنة ، وانت ستة وعشرين .. وكلهم قالوا إنهم عاطلين ، وانت قلت بدون عمل .

ســـعد : وده معناه إيه يا باشا .

حســـام : إنك مختلف .

عمـــاد : وزعيم التنظيم .

ســـعد (مذعورًا) : زعيم إيه ، وتنظيم إيه بس يا باشا ؟!

حســـام : ماتحاولش تلف وتدور يا متهم .. أنا فاكر ملامحك وحافظها صم .. إنت جماعات إسلامية متطرفة .

ســـعد : أنـــا ؟!

عمـــاد : ماتستعبطش يامتهم .. الموضوع واضح تمامًا .

ســـعد : مش ممكن يا باشا !

حســـام : بص بقى .. ما هو يا تعترف بالذوق ، يا حننزل عَزق فيك ، لما ناخد اعترافك .

ســـعد : أعترف بإيه بس ؟!

عمـــاد : بإنك عضو فى تنظيم إسلامى متطرّف .

ســـعد : ماينفعش يا باشا !

حســـام : لأ .. ينفع ياروح خالتك .. وماتحاولش تنكر .. التهمة لابساك لابساك .. وليك ملف عندنا كمان .

ســـعد : يا باشا بأقول لسعادتك مش ممكن !

عمـــاد : بطل استعباط ، وقول لنا اخترت ليه الحرنكش رمز للتنظيم .

ســـعد : طب ممكن سعادتك بس تبص على اسمى فى الملف ؟

حســـام : حافظه صم يا متطرّف .

ســـعد : يا باشا شوف الاسم بس .

عمـــاد : حنشوفه لما نكتبه فى كشف المعتقلين ، مع بقية المتطرفين الإسلاميين .

ســـعد (يصرخ) : يا بيه شوف اسمى بالكامل .

حســـام : حيكون إيه يعنى ؟!

ســـعد : اسمى سعد تادرس صليب .

الفصل الثانى

المشهد الثانى

يكشف الستار عن نفس المشهد الأوّل ، لصالة منزل ماهر ، مع فارق أن الإضاءة خافتة ، ولا توجد موسيقى ، والشباك الموجود فى الواجهة مغلق ، وعليه لوحا خشب متقاطعين ، يمسمرانه حتى لا يفتح ، والشباب الخمسة ملتفون حول الأنتريه فى صمت مكتئب :

صلاح : إيه اللى جرالنا ده يا جماعة ؟!

فتحى : والله ما انا فاهم ، لحد دلوقتى !

ماهر : طول عمرنا فى حالنا ، وماشيين جنب الحيط ، ولا لينا فى السياسة ولا دياولو!! عملوا فينا كده ليه ؟!

عمر : الظاهر السياسة دى مافيش منها مفر .. مهما تهرب منها ، وراك وراك !

ســـعد : ده حتى الحرنكش بقى سياسة !

تنطلق ضحكة سنية العابثة ، من خارج المسرح ، ونسمع صوتها ..

سـنية : يا راجل اتهدّ بقى .. هلكتنى .

صـلاح : جوزها نبطشى برضه ؟!

عمـر : مالناش دعوة ياعم .. لتطلـع دى راخـره سياسـة ، واحنا مش واخدين بالنا .

فتـحى : على رأيك .. ده اللـى جرالنـا م الحرنكش ، مـاجراش لعرابى م الإنجليز .

صـلاح (فى مرارة) : أنا اترفدت من الوظيفة .. رضيت بالهمّ ، والهم مارضيش بيا .. خافوا منى ، لما الأمن مسكنى .. وقالوا إنى حابوظ سمعة المطعم .. يعنى القرشين اللى كنت حاعصر على نفسى لمونة واعيش بيهم ، خلاص .. بج .

عمـر : وأنا حمايا أصرّ يفسخ الخطوبـة .. أول مـاطلعت ، لقيتـه مستنينى بالدبلة على باب المديرية .. مارضيش حتـى يخلينى أشوف خطيبتى .. قاللى إنى ماليش مسـتقبل ، ورد سجون .. وإنه مش عايز يشوف وشى تانى .

فتـحى : شوف الدنيا !.. أنا بقى منعونـى من دخول الكلية ،

ولغوا الماجستير بتاعى .. قال إيه .. الأمن اعترض ، باعتبارى عنصر ضار غير مرغوب فيه .. بعد مـاكنت طالب دراسات عليا ، بقيت عنصر .

سـعد : على الأقل بقيت حاجة .. أنا بقى مـابقيتش أى حاجة .. عندى مشاكل فظيعة مع الكنيسة ، بعد ما الأمن اتهمنى إنى رئيس تنظيم إسلامى متطرّف .. حد يصدّق .. سعد تادرس صليب ، ليه ملف مع الجماعات الإسلامية !

مـاهـر : أنا بقى خلاص .. حابقى فى الشارع .. والشقة اللى كـانت لمّانـا حترجع للمـالك ، اللـى رفـع عليـا قضيـة طرد ، بحجة إنـى باسـتخدم الشـقة فـى اجتماعـات سرية ، وأغراض منافية للقانون .

صـلاح : كل ده واحنا ماشيين جنب الحيط .

سـعد : وكافيين خيرنا شرنا .

عمـر : وحاطين لسانا فى بقنا .

ضحكة عابثة أخرى من سنية ..

فتـحى : وآدى اللى طلعنا بيه .

يصمتون بضع لحظات ، ثم ينتفض صلاح واقفًا ..

صلاح : وله انت وهو .. هاتوا ورقة وقلم .. ووطوا صوتكم .

عمر : حتكتب إيه ؟

فتحى : أكيد محضر جمعية الحرنكش .

سعد : تانى ؟!

فى حزم :

ماهر : بس المرة دى بجد .

تخفت الأضواء تدريجيًا ، ويضاء مصباح خلفى أحمر ، تبدو الشخوص معه أشبه بسلبويت صارم .

ستار

النهاية

د. نبيل فاروق

تجربة بيروقراطستان

كتبت هذه الكلمات ، وأنا أخوض الفصل الأخير ، أو ربما قبل الأخير ، من تجربة مدهشة تستحق التسجيل .. تجربة لا يمكن أن تحدث إلا فى بلد كبلدنا ، يحكمه حزب واحد منذ أكثر من ربع قرن .. حزب اعتاد استخدام كلمات فخمة وضخمة ، وتعبيرات وطنية رنَّانة ؛ لتحقيق أهداف ، لا ينحدر إليها إلا بلطجى من الدرجة الثالثة .. حزب نجح فى إقناع كبيره بأن يقتصر عليه وحده ، دون باقى المصريين ، فى حالة فريدة ، وسط عالم ينطلق نحو التقدُّم والتطوّر بسرعة الصاروخ .

حزب الأقوال الكبيرة ، والأفعال الأقل من الصغيرة ، والذى نشر فى البلاد فسادًا لم تر مثله ، ربما فى تاريخها كله ؛ لأنه فساد من نوع خاص ، لا يبالى بردود أفعال ولا يلتفت للانتقادات ، أو حتى الصرخات ، ويمضى فى غيه بكل بلطجة ، متسلحًا بقوات أمن ، يفوق عددها وتعدادها دولاً أخرى ، أكثر تطورًا ، وتأثيرًا فى السياسة العالمية ..

ولأن الحديث عن الفساد ورائحته طال وباخ ، ولم يعد حتى يجذب انتباه أحد ، أو يتوقَّف عنده مخلوق ، مع انشغال الجميع بالانغماس

فيه ، من أصغر صغير ، وحتى أكبر كبير ؛ فالأجدى أن أتوقَّف عن وصفه ، لأفسح الطريق لتلك التجربة ، التى أضاءت أمامى دولة ضخمة ، تقبع فى أعماق مصرنا ، وتنخر فيها فى سرعة وشراسة ، كما ينخر السوس فى خشب قديم متهالك ..

وربما تعتبر هذه التجربة امتدادًا للموضوع نفسه ، الذى انتهى قبل نشر الاعتذار مباشرة ؛ لأنها تندرج ، فيما تندرج عليه ، على نوع مهم وخطير جدًا ، من فساد النظام الطبى فى مصر ، ولأنها ، فى موجز شديد ، تجربة طبية ..

ولقد بدأت تلك التجربة على نحو مباغت وغير متوقَّع ، فى الأيام الأخيرة من عام 2006 م ..

ففى ذلك التاريخ ، وبعد فترة طويلة من المعاناة من مرض السكر المزمن وارتفاع ضغط الدم ، استيقظت ذات صباح ، لأشعر بتثاقل غير طبيعى ، وتهالك يفوق المعتاد ، ولما كنت أعانى مؤخرًا من زيادة فى الوزن ، لا تتناغم مع الجهد المبذول ، ونوعيات الطعام البسيطة التى تواكبه ، والمكوَّنة فى معظمها من الفول والبيض كعادتى ، فقد طرحت هذا خلف ظهرى ، ونهضت لحلاقة لحيتى .. وما إن وقفت أمام المرآة حتى وجدت أمامى مفاجأة ..

* * *

الشخص الذى طالعنى وجهه الضخم المنتفخ ، فى مرآة الحمام ، كان يشبهنى إلى حد كبير ، إلا أنه يختلف فى أن كل لمحة فيه أشبه ببالون كبير ، فالأنف ، والخدان ، والشفتان ، كلها منتفخة متورِّمة ، وعيناى تبدوان ضيقتين ، على نحو لم أره من قبل قطُّ ..

كنت يومها مضطرًا إلى الذهاب لتجديد جواز سفرى ، الذى بقى يوم واحد على موعد انتهائه ، فقرَّرت أن أخرج من مجمع التحرير ، إلى أقرب عيادة طبية ؛ لتشخيص الحالة ، التى غابت عن ذاكرتى ، بعد سبعة عشر عامًا من التوقُّف عن الممارسة الطبية ، تشخيصاتها المقارنة المنطقية .. وعدت بعد حلاقة لحيتى لارتداء ملابسى ، لتصدمنى مفاجأة ثانية أشد عنفًا ..

فملابس أمس ، التى كانت مناسبة تمامًا ، أصبحت فجأة ، فى غضون يوم واحد ، شديدة الضيق ، تختنق عند صدرى وبطنى بالكاد ، وهنا أدركت أن الأمر ربما يكون أخطر مما أتصور ، وأنه من المحتَّم أن أهرَع لتشخيص الحالة ، بكل الوسائل الممكنة .. وقمت بالاتصال بصديقى ، الذى هو محامىً فى الوقت ذاته ، وطلبت منه مرافقتى ، خشية أن تتطور الأمور ، وتحتاج إلى أياد ثالثة ، ورابعة وخامسة ..

وجاء الصديق ، وذهبنا فى سيارته إلى مجمع التحرير ، وأنا

أجلس مرهقًا منتفخًا ، وأتنفَّس فى صعوبة ، وكل شىء يبدو لى مهتزًّا كئيبًا ، أو هو كذلك فى بلادنا بالفعل .. حتى وصلنا إلى هدفنا ، ودخلنا المجمع ، وبدأنا فى الصعود إلى قسم جوازات السفر ، فى الطابق الأوّل ، لتفاجئنى مفاجأة ثالثة ؛ فأنا أصعد بصعوبة بالغة ، وأنفاسى تتقطَّع على نحو ملحوظ ، كما لو أننى فى السبعين أو الثمانين من العمر ، حتى إننا لم نكد نصل ، حتى كنت ألهث بشدة ، وأحتاج إلى أسطوانة أكسجين كاملة للتعويض ..

وأصيب صديقى بالفزع ، وتعامل معى الجميع فى تعاطف جميل ، يشفّ عن الطيبة الشهمة للشعب المصرى الأصيل ، والتى تختفى دومًا خلف سلبيات واضحة ، ابتكرها الشعب أيضًا ؛ ليظهر معاداته لحكوماته المتعاقبة ، على نحو يناسب قدرته على التحمُّل ، وقدرتها على القمع .. وانتهى جواز السفر بسرعة ، ونزلنا وأنا أشد تعبًا ، و ... وبدأت الرحلة ..

* * *

عندما بدأت رحلتى مع المرض ، كانت معلوماتى كلها ، عن عالم الطب والأطباء ، تقتصر على لقاءاتى مع زملاء وأصدقاء الدراسة فى طنطا ، وسنوات العمل والممارسة فى مستشفياتها ، والسلبيات والتجاوزات التى رصدتها ، والتى بدت لى آنذاك ، كأنها ذنب كبير ، وجرم لا يغتفر ، إلى الحد الذى دفعنى إلى الاستقالة ..

ولكن منذ اليوم الأوّل ، صدمتنى حقائق ، أكّدت لى أن ما رأيته قديمًا جحيمًا ، كان النعيم بعينه ، والنزاهة المجسَّمة ، بالنسبة لما آل إليه الحال الآن ؛ فقد ذهبت إلى عيادة تحمل اسم طبيب شهير ، لم يجذبنى إليها سوى قربها الشديد من مجمع التحرير ، ولافتتها .. التى تشير إلى أن صاحبها من أكبر الأكابر ، فى أمراض القلب والشرايين ..

لم يكن الطبيب قد وصل بعد ، فحجزت دورًا لتوقيع الكشف ، وجلست أنتظر ، وأنفاسى تأبَى أن تهدأ أو تستقر .. ولمَّا كنت قد اعتدت ألا أشير إلى كونى طبيبًا ، فى العيادات الخاصة ؛ حتى لا يصاب الأطباء بالفزع ، ويتصوروا أن إعلان هذا هو تمهيد لطلب استثناء ، أو كشف مجانى ، وما يعقب هذا ـ فى المعتاد ـ من معاملة جافة خشنة ، وربما قاسية أيضًا ، فقد جلست صامتًا ، أنتظر مع الباقين ، حتى وصل الطبيب بعد أربع ساعات من الموعد المعلن فى لافتة عيادته ، ووصل عاقدًا حاجبيه ، قالبًا سَحنته ، أقرب إلى الغضب ، شلولخ (على رأى الأستاذ الكبير عادل إمام) ، وكأنه قادم إلى عيادة مجانية ، ليعالج فقراء متسولين ، يمدون أيديهم إليه .. واندفع نحو حجرة الكشف كالصاروخ ، حتى لا يستوقفه أحد ، ويلقى عليه سؤالاً ، يمنحه استشارة مجانية ، دون وجه حق ..

* * *

وعلى الرغم من ازدحام العيادة ، راحت الكشوف تدخل وتخرج بسرعة ، وكل مريض يبدو كأنه لم يحصل على مبتغاه .. حتى حان دورى ، بعد ست ساعات من الانتظار ، ودخلت للباشا الطبيب الكبير ؛ لأخبره بحالتى ، وأنا ألهث على نحو ملحوظ ، وربما أشفق على حالى ، فلم يستمع إلى شكواى ، حتى لا يصيبنى بالملل ، واستدعى الممرض ، وأخبره أننى أحتاج إلى رسم قلب عادى ، وآخر بالمجهود ، وتحاليل وفحوصًا خاصة ، أجريها فى معمل مجاور ، يحمل اسمًا نسائيًا ، علمت فيما بعد أنه اسم زوجته ، ثم أمسك ورقة وكتب أسماء وأنواع التحاليل .. وتوالت المفاجآت ..

* * *

نصف التحاليل والفحوص التى طلبها الطبيب الكبير ، لم تكن تتفق ، أو حتى تتناسب ، مع تشخيص أى مرض بالقلب ، ولكن من المؤكد أنها كانت تساوى مبلغًا ضخمًا ، سيربحه معمل الزوجة ، ثم إنه لم يُجْرِ فحصًا طبيًا واحدًا ، أو حتى يسمع تاريخى المرضى المزمن ، أو تاريخ الحالة نفسها ، قبل أن يعمد إلى طلب تحاليل باهظة الثمن .. إلى هذا الحد .. فكل ما رآه أو عرفه ، هو أننى كاتب معروف ، ويمكننى تحمُّل ثمنها ماديًا ، أو ستكون هناك جهة تتحمَّل هذا حتمًا .. فلِمَ لا ؟!..

كان ممرض العيادة يقودنى إلى المعمل ، عندما أخبرته أننى أفضّل معملاً آخر ، لى معه تجارب سابقة ، فأصيب الممرض بالهلع ، وأخبرنى أن هذا مستحيل ، فلما سألته : لماذا ؟ أخبرنى أنها تحاليل وفحوص عاجلة للغاية ، ولابد من إجرائها فورًا .. ولم أعلّق على كلماته ، ولكننى كنت أعرف بحكم شهادتى وخبرتى الطبية ، أن بعض هذه المطلوبات سيستغرق أيامًا ، أو يومًا كاملاً على الأقل ، لذا فقد أخبرته بما يمكن أن يفهمه ، ألا وهو أننى لست مستعدًا ماديًا ؛ لعمل تلك التحاليل والفحوص الآن ، ولكنه ازداد تشبثًا ، وأكّد لى أنه يمكننى دفع عربون بسيط ، والباقى عند الاستلام ، دون أن يدرك أن هذا يتعارض مع ما ذكره مسبقًا ، عن سرعة عملها ..

واعتذرت ، وهربت بالكاد ، وقررت إعادة الكشف ، الذى لم يتم فعليًا ، عند طبيب آخر ، لتتكرر الصورة نفسها ، مع استثناء طلب فحوص أكثر ثمنًا ، وفى معمل كبير معروف .. وهنا أدركت أن الاستمرار فى هذه الدائرة ، قد يؤدى بى إلى الوفاة ، قبل أن يتم تشخيص حالتى فعليًا ، ولابد من كسرها بأى ثمن .. وهنا قفز إلى ذهنى الحل المثالى ، فزملاء الدراسة كلهم أصبحوا أطباء كبارًا ، فى مصر والإسكندرية وطنطا .. فلماذا لا أعود إلى أقربهم ، ليستمع إلىّ ، ويمنحنى تشخيصًا أثق فيه على الأقل ؟

وعلى الفور ، حتى وقبل عودتى إلى منزلى ، اتصلت بصديق وزميل الدراسة ، الدكتور عاصم غلاب ، وطلبت منه ترتيب الأمور ، حتى أصل إلى طنطا فى الصباح التالى ، وبالفعل ، وصلت لأجد (عاصم) فى انتظارى ، وهرع بى إلى صديقنا الدكتور مدحت عشماوى ، فى مركز القلب ، وبدأ كل شىء على الفور ، بكل اهتمام وعناية ، لأتلقَّى على وجهى ، وعبر أذنىّ صدمة جديدة .. وعنيفة .

* * *

فور وصولى إلى مركز القلب ، استقبلنى الزميل الأستاذ الدكتور مدحت عشماوى ، وطلب منى أن أشرح له الحالة بالتفصيل ، ثم بدأ الكشف الطبى فورًا ، وهاله أن يجد ضغط دمى مرتفعًا إلى حد مخيف ، حتى إنه لو كنا قد تأخرنا فى التشخيص يومًا واحدًا ، لكانت العواقب وخيمة ، وربما دائمة ، وغير قابلة للعلاج أيضًا ، وهذا دليل آخر على ما يمكن أن يؤدّى إليه الاستهتار والفساد الطبى ، فى تاريخ وصحة وحياة أى إنسان .. ولكن المهم أن الفحوص والتحاليل بدأت على الفور ، ووفق نظام طبى دقيق ، وتم استدعاء زميلنا الدكتور هشام نوح ؛ لعمل الموجات الصوتية اللازمة ، على القلب والأحشاء ؛ للاطمئنان إلى أن هذا الضغط الرهيب لم يؤذها بعد ، ثم بدأ العلاج فى دقة ، وبجرعات منتظمة ..

وتصورت أن حالتى هى انعكاس للارتفاع الشديد للغاية فى

ضغط الدم ، وحاولت مراجعة ما تبقى فى ذهنى ، من معلومات طبية قديمة ؛ لربط الحالة بالتشخيص ، إلا أننى عجزت عن هذا تمامًا ، ولكننى كنت واثقًا من أننى الآن فى أرضى ، وأن زملاء وأصدقاء الدراسة سيقومون بكل ما يلزم ، وأننى سأحصل لديهم على ما لا يمكن أن أحصل عليه من النظام الطبى السائد ..

كان القلق واضحًا على وجوه الجميع ؛ لسبب لم يذكره أحد منهم ، وحاولت سؤالهم عنه ، إلا أنهم ، وعلى عكس طبيعتهم ، تحفظوا فى الإجابة ، على نحو ضاعف من قلقى ، وأشعرنى أن حالتى تتجاوز ارتفاع ضغط الدم بكثير ، وأنها حتمًا تندرج فى مضمار آخر تمامًا ، ولزمت صمتًا مبهوتًا ، منتظرًا النتائج ..

وبسرعة ، وصل الزميل الأستاذ الدكتور هشام بدرة ، وراجع الأمور والنتائج كلها ، وعقد الزملاء كونصلتو طبيًا خاصًا ، ثم انتخبوا (مدحت) ، ليواجهنى بالجزء الأوّل ، وهو يخبرنى أنهم يستطيعون منحى روشتة علاج عاجل ، وآخر ممتد المفعول ، ولكنه يرى أنه من الأفضل أن أقضى يومين أو ثلاثة فى قسم العناية المركّزة ..

كانت لدىّ العديد من الارتباطات ، ولكننى كنت أعانى بالفعل من تدهور صحى ، جعلنى أقبل بنصيحتهم ، فأعدت ابنى ، الذى

كان يصحبنى ، إلىٰ منزلنا فى القاهرة ، ورقدت أنا فى قسم العناية المركزة فى مركز القلب فى طنطا ..

وفى المساء ، وبينما أرقد ، وأنابيب المحاليل تتصل بجسدى ، جاء الصديقان ، عاصم غلاب وهشام بدرة ؛ ليمنحانى المفاجأة الكبرى ..

* * *

كُليتاى توشكان على الانهيار .. هذا هو التشخيص الذى صدمنى به زميلا الدراسة ، وكلاهما متخصِّص فى هذا المجال ، ومع مراجعة الفحوص والتحاليل ، أدركت أنه تشخيص حقيقى ، وسليم للغاية ؛ فضغط الدم المرتفع كان انعكاسًا للانهيار الكلوى ، والانتفاخ الشديد نتيجة لعجز الكليتين عن تصريف المياه الزائدة عن الجسم ، ولإسرافى فى تناول البروتينات ، والبيض بالتحديد ..

كانت صدمة شديدة ، ولكن كان علىَّ تقبُّلها ، على أى نحو كان ، وسألت الزميلين عن وسائل العلاج المتاحة ، فأخبرنى هشام أنه سيمنحنى علاجًا مدعَّمًا ، يكفى لإطالة الفترة ، ولكنه لن يمنع انهيار الكليتين فى النهاية ، وأنها مسألة وقت فحسب .. وتلقيت العلاج فى الليلة نفسها ، مع حظر كبير للخضراوات

والبروتينات بأنواعها ؛ مما أشعرنى بحيرة شديدة ؛ فبحكم إصابتى بمرض السكَّر ، هناك حظر على تناول الحلويات والنشويات ، ومع الانهيار الكلوى ، أضيفت إليها البروتينات والخضروات والفواكه ، فماذا يمكن أن آكل إذن ؟!..

طرحت السؤال على الزميل هشام ، فأعطانى ورقة مطبوعة ، تحوى تفاصيل تغذية مريض الانهيار الكلوى ، وطلب منى الالتزام بها بمنتهى الدقة .. وعلى الرغم من أن هذا أمر عسير للغاية ، قرَّرت تنفيذه ، على أى نحو كان ؛ حتى أطيل فترة الانهيار ، إلى أقصى حد ممكن ، قبل أن تتحوَّل إلى فشل كلوى تام ..

وخرجت من العناية المركَّزة ، فى وقفة عيد الأضحى ، الذى لم أتناول فيه قطعة لحوم واحدة بالطبع ، على الرغم من أنها ربما تكون المناسبة الوحيدة التى يشبع فيها المصريون من أكل اللحوم ، التى وعدت الحكومات المتتالية بالسيطرة على أسعارها ، ولم تنفذ الوعد واحدة منها ؛ ربما لأن السادة الكبار لا يعانون هذه المشكلة على الإطلاق ، أو أنهم قد نسُوا أنهم يحكمون شعبًا فقيرًا ؛ من فخامة وبذخ ما يحيط بهم فى حياتهم اليومية والخاصة ..

المهم أننى تابعت هذه الحياة لشهر كامل ، وانتظمت فى زيارة الدكتور هشام ؛ ليشرف على تطوّر الحالة ، قبل أن يجول

بخاطرى سؤال شديد الأهمية ألا وهو : ماذا عن المرحلة التالية ؟!.. فما دام الفشل الكلوى نهاية حتمية ، فكيف أستعد لمواجهته ؟!.. وأخبرنى هشام ما لا أتوقَّعه .. على الإطلاق ..

* * *

عندما سألت زميلى هشام بدرة ، عن وسيلة التعامل مع الفشل الكلوى ، أخبرنى أنه ليس هناك سوى خيارين ، لا ثالث لهما ، فإما أن أخضع لجلسات غسيل كلوى منتظمة ، تبدأ بجلستين ، ثم تستقر عند ثلاث جلسات أسبوعية ، مدة الجلسة الواحدة تتراوح بين ثلاث وأربع ساعات ، أو أن أجرى جراحة زرع كلى ، تعيد إلى الجسم انتظامه وتوازنه ..

وخرجت من عند هشام ، لأقوم بدراسة الأمر من كل جوانبه أوّلاً ، قبل أن أتخذ فيه قرارًا حاسمًا ، واعتبرت أن الأشهر الستة التى تحتاج إليها كليتاى ، لبلوغ مرحلة الفشل التام ، هى المهلة المتاحة لبلوغ العلاج الحاسم فى هذا الشأن .. وعدت إلى مكتبى ، وجلست أمام شبكة الإنترنت ؛ للبحث عن كل ما نشر من أبحاث ودراسات حول حالتى ، مما يساعدنى على اتخاذ القرار ..

والواقع أن ما وجدته على شبكة الإنترنت قد هالنى للغاية ، فمن بين دول العالم ، تختص مصر بثلاثة ملايين مريض فشل كلوى فى العام الواحد ، فى نسبة تُعَدُّ الأعلى بين الدول المساوية لها (ليس فى الديمقراطية الزاهية بالطبع) ، وأن معظم هذه الحالات يتم كشفه بالمصادفة البحتة ، وينشأ عن ارتفاع ضغط الدم المستمر بشكل أكبر ، وأن هذا الفشل يتطور بسرعة ، نظرًا لسوء اختياراتنا الغذائية ، ونوعيات الأطعمة لدينا ، وأهمها المخللات بأنواعها ، والبروتينات ..

وعملية الغسيل الكلوى تقليدية ومنتشرة على نطاق واسع ، ولكنها لا تكفى وحدها لعلاج المريض ، الذى يصاب مع فشل كليتيه بنقص حاد فى الهرمون المسئول عن تكوين كرات الدم ، التى تحوى مادة الهيموجلوبين ؛ مما يصيب المريض بأنيميا حادة ، تستلزم عمليات نقل دم مستمرة ، مع كل ما يستتبعه هذا من احتمالات العدوى بعدد من الفيروسات الدموية ، مثل فيروس سى ، أو ما خفى ، كما ترتفع نسب البوتاسيوم ، ويحتاج المريض إلى جرعات عالية من الكالسيوم ..

أما عمليات زرع الكلى ، فقد تطوَّرت على نحو مدهش ، وأصبحت نتائجها ممتازة ، ووسائل التعامل معها ممكنة ، وتعيد إلى الجسم توازنه ، مع نقص البوتاسيوم ، وتحسُّن حالة الأنيميا ..

ولم يعد الأمر يحتاج إلى كثير من التفكير ، فعدت إلى هشام ، وأخبرته أننى أفضّل إجراء عملية زرع كلى .. ومن هنا بالتحديد ، بدأت التجربة ..

* * *

زرع الأعضاء البشرية ليس بالأمر الجديد ، بالنسبة للعالم المتحضّر ؛ فقد ألقاه الدكتور كرستيان برنار فى قلب دائرة الضوء ، فى سبعينيات القرن العشرين ، مع جراحة ناجحة لزراعة قلب بشرى ، من متوفًى إلى حى يعانى من انهيار تام فى عضلات القلب ، ليثبت بهذا إمكانية تطبيق ما ظل لأكثر من عقدين مجرد نظرية .. ومنذ ذلك الحين ، ودون توقف لحظة واحدة ، انطلق علماء العالم يستفيدون من تجربة برنار ، ويدرسونها ، ويضيفون إليها ، وزراعة الأعضاء تتطور بسرعة الصاروخ ، حتى لم يطلّ القرن الحادى والعشرون ، إلا وكانت زراعة معظم أعضاء الجسم أمرًا ممكنًا ، من الرئة ، إلى الكبد ، إلى المثانة ، إلى الكلى ، بل وحتى بعض الأعضاء الخارجية .. فحلم الأطباء يتعدّى الحدود ، والعلماء بطبعهم لا يؤمنون بالمستحيل ، ويتصورون أنه بعد عشر سنوات من الآن ، سيمكنهم زراعة أذرع وسيقان ، تعمل على نحو طبيعى وتلقائى ، لمن فقدوا أطرافهم فى الحروب أو الحوادث ..

وكرد فعل شعبى ، فى كل أنحاء العالم (باستثناء الدول العربية وأفريقيا) ، ولأن الناس أدركت ما فى هذا من فوائد للجميع ، راح الناس يتسابقون للتبرع بأعضائهم بعد موتهم ؛ طمعًا فى استمرار حسناتهم ، بعد فنائهم ، وبدا الأمر كأنه وسيلة جديدة لإطالة أعمارهم ، وأعمار من يهَبُونهم تلك الأعضاء ، حتى إن بعض الدول أصبحت تمنح المتبرعين بالأعضاء بطاقة خاصة ، تحدّد ما تبرعوا به ، أو تدوّن هذا على ظهر رخصة القيادة ؛ توفيرًا لكل دقيقة ، إذا ما أصيب أحدهم فى حادث ، حتى يمكن نقل العضو المطلوب ، قبل أن يتعرض للتلف ..

كان هذا يستلزم تسجيل الاسم ، والعضو المطلوب ، وعمل تحليل كامل للأنسجة ، وتسجيله على الكمبيوتر ، والانتظار فى قائمة طويلة ، ليحصل كل على دوره ، عندما تتوافر أعضاء من شخص ، يمتلك التوافق النسيجى المناسب .. ولما كانت حالة بعضهم لا تحتمل الانتظار ، فقد لجأ بعض أقاربهم أو معارفهم للتبرُّع لهم ، بالأعضاء التى يمكن للأحياء منحها ، مثل الكلى وأجزاء الكبد .. وظلّ هذا يعتمد على عامل واحد لا غير ، ألا وهو التوافق الدموى والنسيجى ، بين المانح والمستقبل ..

هذا ما يجرى فى العالم كله ، وما تحتّمه سُنّة وسرعة التطور ، فى العصر الحديث ، الذى بلغ إيقاعه نحوًا لم يبلغه عبر التاريخ كله ..

أما فى عالمنا العربى ، فالأمر مختلف ، كما يختلف كل شىء ، والكارثة كبيرة .. جدًا..

* * *

فى العالم كله ، تعتبر زراعة الأعضاء أمرًا علميًا بحتًا ، ولكن فى عالمنا العربى ، وفى مصرنا البائسة ، تحوّل العلم ، بقدرة قادر ، إلى مسألة فقهية وشرعية ، وراح الشيوخ والعلماء الأفاضل ، الذين هم حجة فى مجالهم ، ولا يفقهون شيئًا فى العلم والطب ، يُفتون فى أمر ، أمَرَنا الدين نفسه بأن نسأل عنه أهل الذكر ، إن كنا لا نعلم ، وأنا أتحدّى أن يعلن فقيه واحد ، مهما بلغت مكانته ، أنه يعلم ما يعلمه العلماء والأطباء ، حتى لو ادّعى أنه قرأ كتابًا أو كتابين ، أو حتى مرجعًا كاملاً فى الطب ؛ فالعقل والمنطق يؤكدان أنه من يعمل ويدرس أكثر ، يفهم أكثر فى مجاله ، وكلنا نعلم هذه الحقيقة ، ونثق فيها تمامًا ، فى كل المجالات الأخرى دون استثناء ، فلا أحد يستأجر طبيبًا لبناء منزله ، لمجرد أنه قرأ مرجعًا فى الهندسة ، ولا أحد يجرؤ على علاج ابنه لدى مهندس شهير ، فقط لأنه يقرأ كثيرًا فى الطب .. بل وحتى فى المهن ، لا نستأجر سباكًا لإصلاح الكهرباء ، ولا نجارًا لتسليك المواسير ..

كلنا إذن ندرك هذا ، ولكننا نصل إلى منطقة الدين ، فيختلّ

منطقنا ، وتهتز قناعاتنا ، ونرتبك ، وننكمش ، ونخشى مجرد إبداء الرأى ، بل ولا نحاول سؤال أهل الذكر ، الذين ليسوا الفقهاء أو الشيوخ أو الدعاة حتمًا ، بل العلماء والأطباء ، الذين عليهم إجابة سؤال واحد بسيط : أهذا نافع أم مضرّ ؟ حتى يمكن تطبيق القاعدة الأبسط ، التى تؤكد أن كل ما ينفع الأمة حلال ، وكل ما يضرّها حرام ..

والحكومة من جانب آخر ، ليس لديها معيار واضح واحد محدّد ، لتقييم كل الأمور .. ففى الوقت الذى قلبت به الدستور رأسًا على عقب ، وانتزعت منه فى أسابيع قليلة ، كل المواد المانحة للحريات ، ووجدت أغلبية فاسدة منتفعة ، تجيز لها هذا فى أيام ، ما زالت تتلكأ لسنوات وسنوات ، فى إصدار قوانين حيوية ، ربما تساهم فى تحسين أحوال الشعب ، ورفع مستوى معيشته ، أو توفير جزء من الحياة الكريمة له ، ومنها قانون زراعة الأعضاء ، الذى يدور فى المجلس الموقّر منذ سنوات ، دون أن يتحفنا رئيسه بمقولته الشهيرة : موافقون .. موافقة التى يحسم بها أمورًا قادرة على تدمير اقتصاد البلد كله ، فى دقيقة واحدة ، ودون أن تطالب الأغلبية ـ التى استمرأت الفساد ، وغرقت فيه حتى النخاع ، ولم تعد تعرف سواه ـ باتخاذ موقف .. وهذا كاد يكلفنى حياتى .. بعنف .

* * *

عندما يتعلَّق الأمر بقانون جديد ، لصالح الشعب ، أو فئة من فئاته ، تتأخَّر الحكومة وتتلكأ كثيرًا فى إصداره ، وحجتها دومًا أن الأمر شديد الحساسية ، وأنها تخشى من ردود الأفعال ، فإذا ما كان هذا الأمر يتعلَّق بمصالحها ، وتزايد غيها ، وطغيانها ، وكبتها للحريات ، أو لو ثار القضاة وتضامنوا ، أو تظاهر الناس من أجل كرامتهم وأمنهم ، فلا مانع عندئذ من التصدّى للأمور بمنتهى القوة والعنف والشراسة ، وضرب القضاة وأعضاء مجلس الشعب أنفسهم بالأحذية ؛ حتى تستمر السلطة والسطوة ، ويتمادى الغى والطغيان ..

من هذا المنطلق ، لم تصدر الحكومة قانون زراعة الأعضاء ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ، وربما أيضًا من منطلق أن الكبار لن يعانوا من هذه المشكلة أبدًا ؛ فكل شىء تحت أمرهم ، وكل العقبات مذلَّلة ، ولو احتاج أحدهم ، أو أحد أبنائه أو معارفه ، إلى عضو ما ، فالشعب كله رهن إشارته ، والعلاج بالخارج مكفول لكل قريب ونسيب وحسيب للسلطة ..

وعندما بدأت رحلة زراعة الكلى ، لم أكن أدرك ما يواجهنى ، ولا ماذا يدور فى دهاليز ذلك العالم الرهيب ، الذى تحوَّل إلى أكبر تجارة فى مصر ، على المستوى الشعبى ، ويحاول الجميع

الإشاحة بوجهه عنه ، والتظاهر بعدم رؤيته ، وتركه يستشرى دون قانون ينظمه ويحميه .. ولكننى استشرت الزملاء المتخصصين ، فأفتوتى بأسماء عدة معامل تحاليل ، تتخذ من هذا الأمر مصدر دخل رئيسى ، ووسيلة لتحقيق أرباح هائلة ، من المؤكَّد أن الدولة ، بأجهزتها الرسمية المعنية ، لا تدرى شيئًا عنها .. ولما كانت الأمور معقدة ومتشابكة فى مصرنا المسكينة ، كان حتمًا أن أبدأ التجربة من بدايتها ، وأن أنتقى أفضل تلك المعامل ، وأكثرها احترامًا والتزامًا ؛ للبحث عن أهم عامل (علميًا) ، فى التجربة كلها ، ألا وهو المتبرِّع ، الذى تتوافق أنسجته مع أنسجتى ، والذى يصلح لمنحى كليته ..

وذهبت إلى المعمل ، وشرحت لهم الأمر ، الذى اعتادوه وألِفُوه ، فحصلوا على عينة من دمى ؛ لإجراء اختبارات التوافق ، واتفقنا على بعض التفاصيل المهمة ، وتصورت أن الأمر قد انتهى ، وأنه لم يتبق سوى العثور على المتبرِّع المناسب ، وإجراء الجراحة .. ولما كانت أعداد المتبرعين تَفُوق أعداد الطالبين بكثير ، كما عرفت من أبحاثى السابقة ، بدأت أشعر بالارتياح ، ولكن المعمل كان له شرط عجيب .. للغاية ..

* * *

اشترط المعمل ، الذى لجأت إليه للبحث عن متبرِّع ، أن أقوم بنشر إعلان فى الصحف ، أطلب فيه متبرعًا من فصيلة دمى .. ولقد فهمت سبب هذا الشرط على الفور ؛ فهو يؤمِّن المعمل من أية شكاوى قانونية مستقبلية ؛ لاعتبار أنه لا يعمل سمسارًا ، وإنما يلبى طلب مُعْلِنٍ ، أرسل إليه متبرعين ، جاءوا عن طريق رسمى ، وفى الوقت ذاته ، يمنحه فرصة الحصول على أعداد أكبر من المتبرعين ، وفحص دمائهم وخلاياهم ، على نفقة المريض ، والاحتفاظ بسجلاتهم ، التى تتضمن كل بياناتهم ، ووسائل الاتصال بهم ، على الكمبيوتر فى المعمل ؛ لتغذية أية حالات تالية ..

لعبة مدروسة بمنتهى الدقة والعناية ، وتستخدم أحدث الوسائل والتكنولوجيا كالمعتاد ، فى كل الأمور التى تدور تحت السطح ، حتى لَيُخيَّل لنا فى النهاية ، أن الحكومة وحدها هى التى تفتقر إلى التفكير المنظم المرتَّب (الحكومة الإلكترونية طبعًا) .. المهم أننى تقبَّلت الشرط ، وذهبت إلى جريدة كبرى لعمل الإعلان ، وهناك فوجئت باستنكار شديد ، وذعر لا مبرر له ، وواجهنى أحدهم فى صرامة ، مؤكِّدًا أن نشر مثل هذه الإعلانات محظور ، إلا بموافقة خاصة من وزارة الصحة .. وفوجئت بأن الرجل يتعامل معى باعتبارى أحد سماسرة تجارة الأعضاء ، أو مافيا الفشل الكلوى ، حتى إنه لم ينهض لمصافحتى وأنا أنصرف ..

ومن الجريدة الكبرى إلى جريدة صغرى ، تكرر الأمر ، فلجأت إلى جريدة إعلانية شهيرة ، توزَّع بالمجان ، فأخذوا الإعلان ، وتقاضَوْا ثمنه ، وأخبرونى أنه سيُنشَر فى الجمعة القادمة .. وتصورت بهذا أن مشكلة شرط الإعلان قد انتهت ، وأن الأمور ستأخذ مسارها الصحيح ، اعتبارًا من هذه النقطة ..

ويوم الجمعة التالى ، انتظرت نشر الإعلان ، وبحثت فى كل صفحات الجريدة عنه ، ولكننى لم أجد له أثرًا ، واتصلت بالجريدة ، فأخبرنى المسئول أن الباب ، الذى من المفترض أن يِنشر الإعلان فيه ، لم يتواجد فى هذا العدد ، وأن الإعلان سينشر فى الجمعة التالية ..

وبصبر نافد ، انتظرت الجمعة التالية ، ولأوَّل مرة ، رحت أترقَّب وصول الجريدة الإعلانية فى لهفة ، فلم يكد مندوب توزيعها على الحى يصل ، حتى اختطفتها منه ، والتهمت صفحاتها فى شغف .. ولم أجد الإعلان ، فعاودت الاتصال بالمسئول ، ليلقى على مسامعى مفاجأة.

* * *

بعد أسبوعين من الانتظار ، فوجئت بمسئول الجريدة يخبرنى أن الإعلان لن يِنشر ، وأنه علىَّ أن أذهب إلى المقر ، الذى

قدَّمته فيه ؛ لاسترداد المبلغ (بالمناسبة ، استرددت المبلغ بعدما يقرب من ثلاثة أشهر ، وست زيارات) .. وعندئذ شعرت بيأس سخيف ، فالأمور كلها تعقَّدت وتشابكت ، وأصبحت كل مشكلة مرتبطة بأخرى .. المشايخ الأفاضل خالفوا قاعدة سؤال أهل الذكر ، وأفتوا دينيًا ، فى أمور علمية بحتة ، فأثاروا فزعًا لا مبرر له ، وجعلوا الجميع يتحاشى مجرد الخوض فى الأمر ، ليتحوَّل العلم إلى جريمة ، يحاول كل شخص التنصُّل من المسئولية فيها ..

تعالَوْا نتصور أن مشايخ زمان ساروا على النهج نفسه ، عندما قدمنا لملك فرنسا (شارلمان) أول ساعة ، وأفتوا بأن الوقت ملك ـ لله سبحانه وتعالى ـ وحده ، أو أن أحدهم قد دس أنفه فى أبحاث ابن النفيس ، وأكَّد أن العبث بالدم البشرى حرام .. حرام تصوروا ما كنا سنصبح عليه حينئذ!! ..

ولكن من الواضح أن مشايخ زمان كانوا أكثر حكمة ، وأكثر معرفة بالدين الحنيف ، الذى يطالبنى بالعلم والتطور ، وبالسعى خلفهما ولو فى الصين .. أما اليوم ، فلم يعد لهم من هَمٍّ سوى تعقيد الحياة ، والإثقال على العباد ، بقواعد وأوامر ونواهٍ لا حصر لها ، كما لو أنهم قد كشفوا وجود الدين الإسلامى فجأة ، فى العقدين الأخيرين ، أو كأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يحاسب من يعذِّب الناس ، أو يمنع عنهم منفعة ..

المهم أن تجربتى مع الجريدة الإعلانية ، جعلتنى أتصور أن إيجاد متبرِّع ، عبر معمل محترم ، أمر بعيد المنال ، فى نظامنا البيروقراطى العتيد ، وربما كان من المحتَّم أن أبحث عن سماسرة المتبرعين ، الذين أثْرَوْا ثراءً فاحشًا ، من تجارة ما زالت محظورة ، إنسانيًا على الأقل ..

وبدأت جولة جديدة من التجربة ، وبدأت فى جمع تحريات عن أولئك السماسرة ، ومن المدهش أن هذا لم يكن عسيرًا على الإطلاق ؛ فقد وجدتهم معروفين للجميع ، فيما عدا السلطات الرسمية بالطبع ، ولهم أماكن واضحة ، وخريطة توزيع منظمة .. وذهبت إلى أحدهم فى مقهى شعبى ، ووجدت الأمور تتم كما لو أننى قادم لشراء مخدرات ؛ أسئلة ، واستجوابات ، وحذر ، ونظرات مستريبة ، ومحاولات إيقاع ، استغرقت ما يقرب من الساعة ، قبل أن يطمئن السمسار إلى أننى لست من رجال الشرطة والمباحث ، فسألنى عن فصيلة دمى ، وبعدها رأيت ما هالنى .. بشدة ..

* * *

مسكين أنت يا شعب مصر !.. فسَق مترفوك ، وعاثُوا فيك الفساد ، ثم تزاوجوا مع السلطة ، فتجبَّروا وتكبَّروا ، وانتزعوا اللقمة من بين فكى الفقراء ، فبت جائعًا ، عاريًا ، مهضومًا ، والفاسدون من داخلك يعيشون فى قصور ، يكفى ثمن الواحد منها لمحو فقر مدينة كاملة ..

ربما أعرف هذه الحقيقة منذ زمن طويل ، ولكننى لم أرها أمام عينىَّ بهذه البشاعة ، إلا فى ذلك المقهى ، وأنا أجلس مع سمسار الكلى .. فما إن عرف فصيلة دمى ، حتى رفع صوته يطلب أصحاب تلك الفصيلة ، وهنا فوجئت بأنه ، باستثنائى وزبونين أو ثلاثة ، فكل الجالسين على المقهى من المتبرعين ، الذين ينتظرون دورهم ، لمنح كليتهم إلى من يدفع ثمنها ، وكل أملهم أن يمنحهم هذا ما يعينهم على حياة كريمة ، أو يسد رمقهم فى شتاء طويل ..

وجوه شاحبة ، نحيلة ، ممصوصة ، حفر البؤس ملامحه عليها فى وضوح ، فبدت أشبه بهياكل بشرية ، تسير على قدمين ، وما إن هتف بهم السمسار ، حتى هرولوا بَاسِمِين ، وكل منهم يتمنى أن يكون المحظوظ ، الذى يقع عليه الاختيار هذه المرة ، فيخرج من قاع الفقر ، إلى فقر أقل ضراوة ..

أفزعتنى الصورة ، وأدهشتنى ، وأنا الذى كان يتصور أن المشكلة كلها تكمن فى المتبرِّع .. وكما يحدث فى سوق العبيد ، راح السمسار يستعرض بضاعته ، ويخبرنى مزايا كل متبرِّع ، وأخرج ورقة كبيرة من جيبه ، وراح يقرأ ، ومع كل حرف ينطقه ، كانت تسيطر علىَّ مشاعر عديدة ، هى مزيج من الشفقة والاشمئزاز ، والغضب ، والعار .. .. كيف يمكن أن يبلغ شعبنا هذا الحد ، فى دولة تتفطن

طوال الوقت بديمقراطيتها ، وحرياتها ، ورعايتها ..

دولة انشغلت بحكامها وكبارها ، وشاركت المترفين فِسقهم ، فنسِيَت أنها تحكم شعبًا ، سيحاسبها الله (سبحانه وتعالى) على كل قطرة دم أريقت منه ، وإن كنت واثقًا من أن أولئك لا يفكرون لحظة فى آخرتهم ، أو فى وقوفهم أمام رب كريم ، وربما يتصوَّرون أنهم أول من سيكسر ثوابت الوجود ، وينجو من موت يأتيه ، ولو فى بروج مشيَّدة ، أو الأدهى أنهم يتصورون أنفسهم على حق ، أو أنهم سيتمتعون فى الآخرة بنفس السلطة والسطوة والجبروت ، التى يتمتعون بها فى الدنيا .. المهم أننى ، مع ما رأيت ، اتخذت قرارًا .. حاسمًا .

* * *

على الرغم من حالتى الصحية ، التى كانت تتدهور باستمرار ، ومن التورّم الشديد فى قدمىَّ ، والذى يُعجِزنى كثيرًا عن المشى ، ومن محاولاتى الدائمة المرهقة ؛ للتماسك أمام الآخرين ، ما إن رأيت تلك الصورة البشعة ، لشعب مصر ، الذى يبيع لحمه من أجل لقمة العيش ، اتخذت قرارًا حاسمًا ؛ ألا وهو أننى لن أتعامل مع السماسرة ومتبرعيهم ، مهما كان الثمن ، ومهما كانت النتائج ..

ومرة أخرى ، عدت إلى مشكلة الإعلان ، التى بدت كأنها بلا حل ، وانشغلتُ بالبحث عن حلول مع الصحف القومية ، حتى إننى نسيت أن هناك صحفًا أخرى .. وهنا طرحت الأمر على الصديق إبراهيم عيسى ، الذى فوجئ بأمر مرضى ، وإن أخبرنى ، كما يحدث فى الأفلام البوليسية ، أنه كان يتوقَّع هذا ، مع الشحوب الشديد فى وجهى ، والإرهاق البادى علىَّ دومًا ، ثم تحرَّك بمنتهى السرعة والشهامة كعادته ، وتم نشر إعلان صغير ، خلال الأسبوع نفسه ..

ولا أحد يمكنه أن يتصور كم أزاح هذا من عبء عن كاهلى ، وإن منحنى فصلاً جديدًا ، من كتاب فقر وبؤس شعب مصر ؛ فما إن ظهر الإعلان ، حتى انهالت مكالمات المتبرعين ، فى غزارة لم نكن نتوقَّعها .. ولما كانت زوجتى هى التى تستقبل مكالماتهم ، فقد أرهقها هذا بشدة ، خاصة وأن السؤال الأوَّل لمعظمهم هو كم سندفع مقابل الكلية ؟.. ولكن هذا لا يمنع من أن اتصالات عديدة كانت تعرض التبرُّع ، من أجل وجه الله (العزيز الحكيم) فحسب ، وابتغاء مرضاته ، والتصدُّق بصدقة جارية ..

وكل متبرِّع كان لابد من إرساله إلى المعمل ، على نفقتى بالطبع ، لعمل التحاليل والفحوص اللازمة ، من أجل توافق الأنسجة ، مما كان يعنى استنزافًا ماليًا عنيفًا ، أجبرنا على

تخفيض نفقاتنا المنزلية ، والبحث عن موارد جديدة لتغطية المطلوبات اليومية ، التى أضيفت إليها أدوية باهظة الثمن إلى حد مخيف ، لم أكن أيضًا أتصوره أو أتوقَّعه ..

كان علىَّ أن أحصل ، خارجيًا ، على كل ما يفتقده الجسم بسبب الانهيار الكلوى ، مثل الكالسيوم والسيليوم ، والهيموجلوبين الذى ينخفض يوميًا ، حتى يكاد يبلغ حالة أنيميا حادة ..

وفجأة ، ووسط كل هذا ، تلقيت مكالمة غيَّرت المسار كله .. تمامًا ..

* * *

أوَّل مفاجأة سارة أتلقاها ، منذ بدأت هذه التجربة القاسية ، كان خبر العثور على متبرِّع مناسب ، وبنسبة توافق كبيرة ، وما إن تلقيت اتصال المعمل ، يبلغنى بهذا ، حتى طِرْت إلى المعمل ، وأجرينا اختبار توافق ، والتقيت به ، ووجدته شابًا هادئًا بسيطًا ، وتناقشت معه فى أسباب تبرُّعه ، فأجاب ببساطة : إنها ثواب وصدقة جارية .. وارتاحت نفسى للموقف كله أخيرًا ، وبدا لى أن الشمس الغاربة قد أشرقت ، والظلمة قد انزاحت ، وما دامت كل المراجع الطبية تؤكِّد أن المشكلة كلها تكمن فى المتبرِّع

ونسبة التوافق ، فهذا يعنى أن المشكلة قد انتهت ، ما دام المتبرّع موجودًا ، وبتلك النسبة من التوافق ، التى اعتبرها الكل معجزة ، ورضاء من الخالق عزّ وجلّ ..

ولكننى ، فى تفاؤلى المبكّر هذا ، كنت قد نسيت أين أعيش ، وأننى فى مصر ، التى لا تدور فيها أية أمور ، على نحو طبيعى ، ولا يمكنك ، مهما فعلت ، أن تفلت من عباقرة التعقيد والروتين ، ومن القرارات الهميونية ، التى يصدرها كل مسئول فى موقعه ، دون ضابط أو رابط ، ودون أن يفكّر لحظة واحدة فى تداعياتها ، أو فى الجحيم الذى سيسببه للمواطنين ، الذين ناءت أكتافهم بالمتاعب والمشاكل والهموم ، ولا أحد يفكّر قط فى راحتهم أو سلامتهم أو أمنهم ، بل كل ما يشغل أى مسئول فى بلدنا ، هو الحفاظ على مقعده ومنصبه وامتيازاته ، بل وتجاوزاته أيضًا ، حتى لو كان الثمن دماءً تُراق ، بلا رحمة أو شفقة ..

فالبيروقراطية عندنا لها شكل خاص ، يعتمد على غياب العقل واتعدام الفكر .. والقوانين كثيرة ، عديدة ، متشابكة ، ومتضاربة .. والقرارات تصدر دومًا فى لحظات انفعال وسخونة ، ثم لا تجد من يزيلها بعد أن تهدأ الأمور ، حتى لو كانت مصيرية خطيرة ، أو معوّقة .. ومن النادر أن تجد قرارًا فيه مصلحة عامة ؛ لأن معظم القرارات تصدر فى لحظة انفعال ، وبسبب قصور فى القوانين ،

والشعب هو الذى يدفع الثمن ، بغلب وعذاب وإرهاق وضياع حقوق ، والمحتالون وحدهم يجدون سبيلاً للفكاك من تلك الدائرة الرهيبة وعندما يكشف المسئولون هذا ، ولأن القوانين تافهة لا تتناسب دومًا مع الخطأ ، فكل ما يفعلونه هو إصدار قرارات جديدة ، لسد ثغرات القديمة ، ويتعذّب الشعب أكثر ، وينجح المحتالون فى كشف ثغرة جديدة ، وتدور الدائرة .. وهذا ما واجهته ، مع أوّل مفاجآت بيروقراطستان ..

* * *

بعد العثور على المتبرّع المتوافق ، تصورت أن المشكلة الأكبر قد تم تجاوزها ، وأن كل ما ينقص هو بضع إجراءات قانونية ، ثم يحين دور عملية الزرع نفسها .. ولكن من الواضح أننى كنت واهمًا فى نظرتى هذه ، أو أننى نسيت كوننا فى بلد لم يعد يحترم القانون أو الدستور ، وصار كل مسئول ، فى كل موقع فيه ، يتصور أنه ناظر عزبة ، أو أنها عزبة أبيه ، يفعل بها ما يشاء ، ويسُن لها قوانينه الخاصة ، وقراراته المجحفة ، دون ضابط أو رابط ، ودون أن يحاسبه أو يعاقبه أحد ، على العذاب الذى يسببه للمواطنين .. ربما لأن الحكومة نفسها لم تعد تبالى بالمواطنين ، الذين لا يملكون لها نفعًا أو ضرًا ، ولم تعد تعمل أو تبالى ، إلا من أجل شخص واحد لا غير ، هو الذى يقوم بوضعها فى السلطة ، وعزلها منها أيضًا ..

وأوّل ما واجهنى كان تصريح نقابة الأطباء .. كان استخراج تصريح ، يبيح للمستشفى إجراء جراحة الزرع ، يحتاج إلى أوراق عديدة ، حمّلها منشور مطبوع يحتلّ صفحة كاملة .. ولأننى طبيب ، وأدرك احتمال حدوث تجاوزات عديدة فى هذا المضمار الذى تحوّل ، مع تأخُّر صدور القوانين المنظمة له ، إلى تجارة ضخمة تحكمها مافيا على أعلى المستويات ، لم أعترض على الأوراق المطلوبة ، على الرغم من كثرتها ، فيما عدا بندًا واحدًا .. بندًا يحتّم الحصول من أقارب الدرجة الأولى على ما يفيد عدم استطاعتهم أو رغبتهم فى التبرُّع!! ..

وأيًا كانت النية الحسنة التى أضيفَ بموجبها هذا الشرط ، فهو غير منطقى ، وغير عملى على الإطلاق ، ويدس أنفه فى شئون عائلية وأسرية ، قد تعانى من بعض المشكلات ؛ فماذا لو أن شخصًا يرغب فى إخفاء مرضه عن أسرته ، وهذا حقه ، أو شخص آخر ، لا تربطه صلات جيدة بأفراد أسرته ، وأرجو ألا يجيب أحدكم بأن هذا لا ينبغى أن يكون ، فالأمر الذى نناقشه طبى بحت ، وليس جزءًا من حركة إصلاح اجتماعى .. وذلك الشرط كان وما زال يبدو لى مجحفًا ، وغير منطقىٍ ، وربما غير قانونى أيضًا ..

ولكن لأن المناقشة غير مجدية ، فقد رحنا نعد الأوراق اللازمة ، وذهبت شقيقاتى ووالدتى لتسجيل عدم قدرتهنّ على التبرع ، فى الشهر العقارى ، لسبب بسيط للغاية ؛ هو أن والدتى وحدها تحمل فصيلة دمى ، وقد تجاوزت السبعين من العمر ، متعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالصحة والعافية .. وفى الشهر العقارى ، كانت فى انتظارهم مفاجأة جديدة ..

* * *

التعليمات الواردة لمكاتب الشهر العقارى ، فى مصر كلها ، هو عدم تسجيل أية ورقة ذات صلة بموضوع التبرُّع بالأعضاء ، أيًا كان محتواها .. ومن هذا المنطلق ، صار تنفيذ شرط نقابة الأطباء مستحيلاً .. أو هكذا تصوَّرت على الأقل ..

وفى تلك المرحلة ، وبينما أحاول البحث عن مخرج ، جاء من يهمس فى أذنى بأن هناك مستشفى كبيرًا ، يتبَع جهة أكبر ، لا يلتزم بالقواعد والقوانين المعمول بها بالنسبة لكافة المستشفيات ، وأنه لا يحتاج إلى موافقة النقابة ، لإجراء عملية الزرع ..

ولما كان العلاج فى ذلك المستشفى الكبير متاحًا لى ، بعد ما يقرب من عقدين من العمل الشاق ، تصوَّرت أن هذا هو الحل ،

واتجهت مباشرة إلى ذلك المستشفى ، وسجّلت اسمى ، وحصلت على رقم كمبيوتر ، وبدأت رحلة الاستعداد لعملية الزرع ..

كان الطبيب المعالج واحدًا من عمالقة زراعة الكلى فى مصر ؛ مما أشعرنى باطمئنان كبير ، وجعلنى أمضى فى الفحوص الطبية المطلوبة للمتبرّع ، والتى تكلّفت مبلغًا ضخمًا ، ولكنها أكّدت أنه المتبرّع المثالى ، حتى إن أحد المعالجين طلب منّى ألا أتخلى عنه ، مهما كانت المصاعب ، ومهما كان الثمن ..

وفى الوقت ذاته ، أكملت أنا الفحوص اللازمة ؛ استعدادًا للجراحة ، وكان من ضمنها فحص كفاءة عضلة القلب .. ولأننى لم أكن أعانى من أية مشكلات قلبية واضحة ، فقد بدا لى هذا مجرّد فحص روتينى ، ذهبت لإجرائه فى معمل شهير ..

ولكن النتيجة جاءت مفاجئة للغاية .. فعلى الرغم من غياب الأعراض ، أشار الفحص إلى وجود متاعب غير محدّدة ، فى الشرايين التاجية بالقلب ؛ مما يحتّم إجراء قسطرة تشخيصية ، ربما تتطوّر إلى قسطرة علاجية ، إذا ما استلزم الأمر ..

وكانت هذه أوّلَ مرة أشعر فيها بالإحباط ، منذ بدأت هذه التجربة ، ليس بسبب ما يعانيه قلبى ، ولكن لأن الجميع أكّدوا أنه مع قصور الكلى ، يتحتّم أن أجرى عملية غسيل كلوى ، مرة

أو مرتين ، بعد عمل القسطرة ؛ للتخلُّص من المادة الصبغية المشعة ، التى تستخدم خلال عملية التشخيص ؛ فقد كان كل الجهد الذى أبذله ، من أجل هدف واحد ، ألا وهو تفادى رحلة الغسيل الكلوى ، ولكن أنا أريد ، وأنت تريد ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يفعل ما يريد .. وعلى يد الدكتور حازم خميس ، أجريت القسطرة التشخيصية ، وكان الرجل بشوشًا مهذبًا ، يتعامل ببساطة مدهشة ، وبإخلاص شديد ، وكان يداعبنى بكلمات لطيفة ، أثناء عمل القسطرة التشخيصية ، قبل أن يلقى فى وجهى بصدمة .. عنيفة ..

* * *

القسطرة القلبية واحدة من العمليات القليلة ، التى يمكن إجراؤها والمريض واع ومستيقظ ، ولأننى طبيب ، أدار الدكتور حازم خميس المونيتور الذى يسترشد به ؛ ليسمح لى بمتابعة التشخيص ، ورؤية قلبى من الداخل ، وشرايينه التاجية ، ثم سألنى مرة أخرى ، إذا ما كنت أشعر بأية مشاكل ، فلما أجبته بالنفى ، فاجأنى بأن هناك انسدادًا فى الشرايين التاجية ، بنسبة ثمانين بالمائة ، وأن الأمر يحتاج إما إلى عملية قلب مفتوح ، و إما إلى عدد دِعامات القلب ..

وكان من الطبيعى أن أختار الدعامات ، التى يمكن تركيبها بالقسطرة نفسها ، فى نفس الجلسة .. وهكذا ، أضيفت إلى قلبى أربع دعامات ، مع بالون توسيع ، ولم يعد ينقصنى سوى زمارة ليكتمل المولد ..

وبعد العملية ، جاء الجزء المؤلم ، والذى حاولت تفاديه طوال الوقت ، ولكن الفرار من المكتوب أمر محال .. وهكذا تم نقلى ، بنفس الفراش الذى أرقد عليه بعد العملية مباشرة ، إلى وحدة غسيل كلوى مجاورة ..

وهناك ، وجدت نفسى وقد أصبحت جزءًا من الصورة ، التى بدت لى مؤلمة ومؤسفة منذ البداية .. عدد من المرضى يرقدون على أسِرَّة ، وكل منهم مستسلم لجهاز الغسيل الكلوى ، الذى يسحب الدم من جسده ، وينقيه عبر فلاتر مختلفة ، ثم يعيده إليه مرة أخرى ... الوجوه كلها شاحبة مرهقة ، والأجساد نحيلة ممصوصة ، ولكن هذا هو وسيلتهم الوحيدة للحياة ، وبعضهم يُجرِى عمليات الغسيل الكلوى ثلاث مرات أسبوعيًا لعدة سنوات ..

ولأوَّل مرة ، اتصل جسدى بوحدة غسيل كلوى ، ورأيت دمى ينسحب إليها ، ثم يعود عبر خرطوم دقيق شفاف ، وبدأت معوياتى تهتز ، واستسلمت للأمر كما يفعل أقرانى ، واستعنت بالصبر ، طوال الجلسة ، التى استغرقت ثلاث ساعات ، بدت لى أشبه بثلاثة دهور ، قبل أن أعود إلى حجرة العناية المركّزة ..

وأعترف هنا أن الأطباء المناوبين كانوا فى غاية الاهتمام والعناية ، خاصة وأنهم جميعًا تقريبًا كانوا من قرَّائى الدائمين ، حتى إنهم اهتموا جدًّا بالتخفيف من الأمر علىَّ ، والاطمئنان كل ساعة تقريبًا ، حتى غادرت المستشفى فى اليوم التالى ..

كان إجراء القسطرة العلاجية يحتِّم تأخير جراحة الزرع لشهر كامل على الأقل ، لذا فقد قررت الانتظار فى صبر ، لولا أنه فى اليوم التالى مباشرة ، كانت فى انتظارى صدمة ..

* * *

منذ بدأ جهازى الكلوى فى الانهيار ، كانت كليتاى قادرتين على إخراج كمية معقولة من الماء والسموم ، على الرغم من أن القسم الأكبر كان يُختزَن فى خلايا جسدى ، وينفخها على نحو مرهق ومؤلم ، ولكن عقب عملية القسطرة القلبية ، وعلى الرغم من إجراء غسيل كلوى بعدها ، توقَّف خروج البول تمامًا ..

يومان كاملان لم يُخرج فيهما جسدى قطرة واحدة ، فبدأ ينتفخ ، وتثاقلت قدماى ، وبدا الأمر كأن الكليتين قد توقفتا تمامًا ، وأصبحت هناك حتمية لإجراء عمليات الغسيل الكلوى ، التى حاولت تحاشيها .. وبالفعل ، بدأتُ وزوجتى فى البحث عن مركز أو مستشفى قريب ؛ لمتابعة جلسات الغسيل .. وشعرت عندئذ أنه ليس هناك مهرب من المكتوب بالفعل ، واستسلمت لمصيرى تمامًا ..

ولكن فى اليوم الثالث ، ودون مقدمات ، عادت الكليتان لطرد كميات ضئيلة من الماء والسموم ، تزايدت تدريجيًا ، حتى بلغت المعدّل السابق ، قبيل إجراء العملية تمامًا ، مما يعنى أننى لست مضطرًا بعد إلى إجراء جلسات الغسيل الكلوى ..

ولا أحد يمكنه أن يتصور كم شعرت بالارتياح ، مع هذا التطور ؛ مما ساعدنى على احتمال فترة الشهر ، التى يحتاجها استقرار الدعامات ، قبل الشروع فى الإعداد لعملية زرع الكلى ..

ومضى الشهر ، وذهبت لتحديد موعد إجراء الجراحة ، وعندها فاجئونى بحتمية أن يأتى قريب للمتبرّع ، من الدرجة الأولى ، للإقرار بالتبرُّع .. ولمّا كان هذا مخالفًا للقانون العام ، الذى يؤكد أن كل شخص يتجاوز الواحد والعشرين من عمره ، يعدّ مسئولاً مسئولية كاملة عن أفعاله ، ما لم يكن يعانى من قصور عقلى ، أو ضعف فى الإدراك ، فقد اندهشت بشدة للشرط ، الذى وضع أمامى عقبة جديدة غير متوقّعة ، خاصة وأن المتبرّع الذى توافقت أنسجته مع أنسجتى ، على نحو أدهش الأطباء أنفسهم ، كان يصرّ بشدة على ألا يخبر عائلته بالأمر ..

وهكذا وقعتُ بين شِقَّى الرَّحا ؛ فلا المتبرّع يريد إحضار قريب من الدرجة الأولى ، ولا المستشفى ، الذى اعتاد عدم الالتزام

بالقوانين ، يوافق على استثنائى من ذلك الشرط ، على الرغم من سنوات العمل الطويلة ..

ولأن الأمر مخالف للمنطق والقانون ، والدستور أيضًا ، حاولت أن أفهم سر إصرار مدير المستشفى على هذا الشرط ، وكان الجواب كارثة ..

* * *

ذات يوم ، وبعد إجراء زراعة كلى ناجحة ، وإقرار المتبرّع بموافقته ، قام والده بإبلاغ النيابة بأن ابنه تم اختطافه ، وإجباره على منح كليته لأحد ذوى الشأن ..

والمفترض ، فى حالة كهذه ، أن يقدّم المستشفى إقرار المريض الذى يتجاوز الواحد والعشرين من العمر ؛ ليثبت كذب البلاغ ، وأن ينتهى الأمر عند هذا .. ولكن المشكلة أن كل ذوى المناصب يصابون بهلع مرضى ، من مجرد الاتهام ، ويبدون كأنهم أضعف من مواجهة أى موقف يمكن أن يواجهه مواطن عادى ، ثم إنهم يتميزون بأنهم يحتلون مقاعد سلطوية ، تتيح لهم أن يكونوا جزءًا من التجاوزات القانونية ، التى شاعت وفاحت فى هذا العصر بالتحديد .. ولأنهم ضعاف الأعصاب والشكيمة ، فأوّل ما يتبادر إلى أذهانهم هو إصدار قرارات تبعدهم عن

المسئولية ، حتى لو خالفت كل القوانين ، وعذَّبت كل البشر ..

المهم هم ، ومقاعدهم ، وبقاؤهم ، واستمرارهم ..

وهكذا ، ومع حالة الفزع والسلطة ، صدر قرار بضرورة حضور قريب من الدرجة الأولى ؛ للإقرار بالتبرع ، وهذا القرار مضحك للغاية ، من وجهة نظرى ؛ فماذا لو جاء قريب الدرجة الأولى ، وأقر بالتبرع ، ثم جاء قريب درجة ثانية بعدها ، وقدَّم بلاغاً للنيابة أيضًا ؟!.. هل سيمتد القرار عندئذ ، إلى ضرورة إقرار قريب من الدرجة الثانية ؟!..

لو استمرَّت القرارات تَصدر بهذا الشكل البيروقراطى المذعور ، سينتهى الأمر بضرورة تجريس المتبرِّع ، وفضحه فى (الحتة) كلها ، بأن يحصل على موافقة عم عبده البقال ، والواد حكشة صبى القهوجى .. والمضحك أن تبرير هذا جاء بأن المستشفى يحاول إجبار المجتمع على قبول فكرة التبرُّع ، أى إن ذلك الصرح الطبى ، يصرّ على لعب دور المصلح الاجتماعى ، وينسى دوره فى أهمية المحافظة على حياة وصحة ومصلحة المريض ..

أيامَها فكَّرت أن أكتب عن هذا الأمر ، ولكننى رأيت أن الكتابة عنه أثناء المشكلة ، سيجعله يتخذ طابعًا شخصيًّا ، حتى لو حاولت

العكس ؛ لذا فقد قرَّرت تأجيل الكتابة حتى تنتهى الأزمة ، ليمكننى مناقشة الأمر موضوعيًّا ، ودون انفعال ..

وعلى الرغم من محاولات عديدة ، واتصالات لا حصر لها ، وتدخُّل بعض الأصدقاء للوساطة ، منهم الدكتور جلال البطوطى ، والزميلة نجلاء بدير ، أدركت أنه لا أمل فى إجراء الجراحة فى ذلك المستشفى الكبير ، خاصة وأن التوافق المدهش لم يثر ذرة من الاهتمام لدى المدير ، الذى طالبنى بالبحث عن متبرِّع آخر بكل بساطة ..

وهنا قرَّرت الابتعاد عن المستشفى الكبير ، والبحث عن حل آخر .. وهنا ظهر نوع مختلف من المفاجآت .. نوع جديد .. تمامًا .

* * *

فى بلدنا منظومة فساد ضخمة ، من أهم أسبابها أن نظام الحكم لدينا يسير بأسلوب العمد والمشايخ ، ويعتمد اعتمادًا كليًّا على أهل الثقة ، الذى يرى النظام فيهم ، دون سواهم ، أهل الخبرة والكفاءة ، ويصرّ على حمايتهم ، سواء أصابوا أو أخطئوا ، باعتبارهم (رجالتهم) ، وهى سياسة رشيدة ، اتبعها المشير عبد الحكيم عامر قديمًا ، فكانت النتيجة كارثة ، وهزيمة ساخنة

ماحقة ، أطلقنا عليها ، من باب حفظ ماء الوجه اسم (النكسة) ..

ولأن الفساد قد أصبح سمة عامة ، فالجميع يحاول أن يجبرك على السقوط فى مستنقعه ، ويسعى جاهداً لتعذيبك وقهرك ، لو حاولت الإفلات منه .. ومن أهم وسائل إغراق الناس فى مستنقع الفساد ، تلك النظم والقرارات الإدارية المعقّدة ، التى لا سبيل للإفلات منها سوى فى التحايل ، أو الالتفات ، أو التزوير ، أو الرشوة ، أما المواطن الشريف ، فهو يلُف فيها ويدور ، حتى يتملكه اليأس ، مستعدًا ومؤهلاً للفساد ، فى سبيل حل مشكلاته ، أو تجاوز عقباته ..

وخلال تجربتى ، ومهما كانت المصاعب ، كنت مصرًا على الالتزام بالقواعد الصحيحة ، والبحث عن حلول منطقية (فى بلد لا يعرف المنطق) ، أو مخارج قانونية ، من كل مأزق ، وكل هذا وحالتى الصحية تتدهور بشكل مطّرد ، وتورُّم القدمين يتضاعف ، حتى أصبح السير ، مجرَّد السير ، مشقة لا يمكننى تحملها ؛ مما استدعى استشارة طبيب باطنى متخصِّص فى أمراض الكلى ، والحصول على رأيه فى الفحوص التى تم إجراؤها للمتبرِّع ، ودرجة توافق أنسجته مع أنسجتى ..

ونصحنى الدكتور حازم أبو الفتوح باللجوء إلى الدكتور

مصطفى أيمن ، ولم أكن قد تعاملت معه من قبل ، فحملت كل الأوراق والفحوص ، وذهبت إليه ، فى نفس الوقت الذى قام فيه الزميل خيرى رمضان بمحاولة مشكورة ، جعلت مستشفى سعد بالمملكة العربية السعودية يعرض إجراء الجراحة لديه ، وعلى نفقته ، شاملة تذاكر الطيران والإقامة ، لى ، وللمتبرِّع ، وللمرافق أيضًا ، ولقد أدهش هذا الصديقَ إبراهيم عيسى ، وأحزنه فى الوقت ذاته ، وأخبرنى أنه كان يتمنى لو أن بلدى هو الذى قدَّم مثل هذا العرض ، لا مستشفى سعودى ..

المهم أننى قد ذهبت إلى الدكتور مصطفى أيمن ، فى مرحلة تصورت خلالها أنه لا أمل فى إجراء الجراحة فى مصر ، ولكن مع أول زيارة له ، تبدَّلت الصورة .. تمامًا ..

* * *

فى شبابنا ، وعند التحاقنا بكلية الطب ، كانت فى أذهاننا صورة مثالية للطبيب ، وكانت لدى كل منا أحلامه وطموحاته .. وبالنسبة لى ، كان الطبيب أشبه بفدائى ، يمنح نفسه لهدف سام نبيل ، ألا وهو نزع الألم والعذاب من المرضى ، ومَنْحُهم الرحمة والأمل والتعاطف ، ويتفانى لإنقاذ الأرواح وإسعافها ، ويترك الرزق للخالق عزَّ وجلَّ ..

ومنذ بدأت تجربتى هذه مع المرض ، لم ألتق بطبيب تناغَمَ تمامًا مع تلك الصورة مثل الدكتور مصطفى أيمن ؛ فهو طبيب مخلص ، متعاطف ، حسّاس ، شديد التهذيب والاحترام ، وتشعر من اللحظة الأولى أنه قد احتواك ، أو أنك صديق قديم له ..

صورة رائعة للطبيب ، كما ينبغى أن يكون ، وكما يتمنى أى مريض أن يجد .. ولأنه شديد الاهتمام بمرضاه ، كان من الطبيعى أن تسير العجلة فى سرعة ، منذ أوّل زيارة له ؛ ففيها اقترح إجراء الجراحة فى مستشفى مصر الدولى ، وقرن اقتراحه هذا بخطاب إلى المستشفى ، لاستخراج تصريح نقابة الأطباء ، وهناك ، فى المستشفى ، استجاب الدكتور محمود عبد العزيز على الفور ، وحصلنا على خطاب المستشفى .. ولأن الوقت قد حان ، كما أراد له ، الله سبحانه وتعالى ، قدّمنا الخطاب مع الفحوص والتحاليل والمتبرّع نفسه إلى نقابة الأطباء ، وسألنا عن مشكلة إقرار أقارب الدرجة الأولى ، فأخبرونا أنه ليس من المطلوب تسجيل الإقرارات فى الشهر العقارى ، وإنما هى إقرارات خطية ، مع صور البطاقات فحسب ؛ مما جعلنا نستوفى الأوراق والإجراءات كلها خلال يومين .. ولأننى طبيب ، ومع تفهُّم الصديقين الدكتور عصام العريان ، والدكتور عبد الفتاح رزق ، صدر التصريح فى مدة قياسية ..

وعدت إلى الدكتور مصطفى أيمن ، الذى سألنى عن الموعد المناسب لإجراء الجراحة ، التى سيجريها واحد من عمالقة زراعة الكلى فى مصر ، وهو الدكتور إبراهيم أبو الفتوح ، بمساعدة الدكتور حازم أبو الفتوح .. ولما كنت قد عانيت الأمَرَّين ، خلال الأشهر السابقة ، فقد طلبت منه إجراء الجراحة فورًا ، فما كان منه إلا أن أرسلنى إلى المستشفى بالفعل ، حيث استقبلنا الدكتور محمود عبد العزيز ، بدمائته البسيطة ، وتمت الإجراءات بسرعة ، لى وللمتبرِّع ، على أن يتم إجراء الجراحة صباح اليوم التالى ..

وطوال الليل ، لم أكن أصدّق أن المشكلة قد انتهت أخيرًا ، وأننى سأجرى العملية بالفعل ، بعد أن استعددت لها ثلاث مرات ، وتم إرجاؤها لأسباب إدارية تعنتية!! ..

وفى الصباح التالى ، تم نقلى مع المتبرِّع إلى حجرة العمليات ، وحضر الأطباء ، وتم تخديرنا ، وبدءوا فى إجراء الجراحة ، التى كادت تنتهى بكارثة ..

* * *

عندما نتحدَّث عن الأخطاء الطبية ، اعتدنا أن يثور الأطباء ويغضبون ، على الرغم من أن غضبتهم نفسها تعنى أنهم بشر ، والبشر ليسوا معصومين من الخطأ ، مهما بلغت مكانتهم ،

ومهما بلغ علمهم .. وعندما نشرت فى السابق سلسلة أعمدة .. عن الفساد الطبى وأخطاء الأطباء ، وجدت ثورة عارمة من الجميع ، وعلى رأسهم رفاقى القدامى وزملاء دفعتى فى كلية الطب ، والذين هدَّد بعضهم بمقاطعتى ، لو استمررت فى الحملة ؛ مما أشعرنى بأنهم يجهلون حتمًا أسس العمل الصحفى .. فكل سطر أكتبه ، أو كتبته ، فى حياتى كلها ، سيجد من ينتقده ويغضب منه ، ومن يؤيِّده ويتفاعل معه ، ولو أن صحفى واحد ، فى العالم كله ، تساءل عما إذا كان ما يكتبه سيغضب الجميع أم لا ، لتوقفت مهنة الصحافة وانقرضت ، وظهرت بدلاً منها مهنة المطيباتى ..

ولكى يهدأ الزملاء ، دعونى أخبرهم أننى الطبيب الذى أخطأ هذه المرة ؛ فعندما أجريت القسطرة القلبية ، ولضمان ثبات الدعامات ، كنت أتناول جرعة منتظمة من عقار قوى ، مانع للتجلُّط ، وعندما ذهبت لزيارة الدكتور مصطفى أيمن للمرة الأولى ، أخبرنى بضرورة إيقاف العقار قبل عشرة أيام من إجراء الجراحة ..

ولكن المشاكل الإدارية أنهكتنى ، وتأجَّلت الجراحة أكثر من مرة ، لأسباب بيروقراطية بحتة ، حتى إننى شعرت أن زرع الأعضاء يعتبر ، فى العالم كله ، مشكلة طبية بحتة ، أما فى عالمنا العربى ، فهو مشكلة قانونية وشرعية واجتماعية فقط ..

المهم أنه عندما حصلت على موافقة النقابة ، وتحدَّد موعد العملية ، كنت متلهفًا لإجرائها ، ومنشغلاً بهذا ، حتى إننى نسيت أن أوقف العقار ، وعندما تذكَّرت هذا ، أوقفته قبل الجراحة بيومين فحسب ، ولم أدرك العواقب الوخيمة لهذا ..

وفى الثامنة صباحًا ، وبعد ليلة من الإعداد والتجهيز فى المستشفى ، تم نقلى مع المتبرِّع إلى غرفة العمليات ، وحضر العملاق الأستاذ الدكتور إبراهيم أبو الفتوح ، والدكتور حازم أبو الفتوح ، وسَرَى البنج فى عروقى ، ورحت فى سبات عميق ..

وكما علمت فيما بعد ، فما إن بدأ الدكتور إبراهيم فى إجراء الجراحة ، حتى فوجئ بنزيف حاد للغاية ؛ بسبب العقار المضاد للتجلُّط .. ولما كانت كلية المتبرِّع قد انتُزعت بالفعل ، كان من المحتمّ الاستمرار فى إجراء الجراحة ، والاعتماد على نقل كميات من الدم ، لتعويض ما أفقده .. وبقياس نسبة الهيموجلوبين لحظتها ، تبيَّن أنها تقلّ عن نصف النسبة المقبولة طبيًا .. وكان هذا يعنى كارثة ..

* * *

على الرغم من المتاعب الجمّة ، والعقبات التى لا حصر لها ، التى واجهتها لإجراء الجراحة ، إلا أنه ما من شك فى أننى كنت محظوظًا للغاية ، خلال الجراحة نفسها ، فمع النزيف الحاد ،

وانخفاض نسبة الهيموجلوبين ، كان من الطبيعى أن تكون هذه لحظاتى الأخيرة ، لولا توفيق الله ، سبحانه وتعالى ، وبراعة العملاق إبراهيم أبو الفتوح ، وحازم أبو الفتوح ، وكل الطاقم الجراحى المصاحب ، فالأستاذ كان يعمل بكل مهارة وسرعة ، فى وسط غارق فى الدم ، الذى يواصل الانهمار فى غزارة ، حتى إن المستشفى كان يحتفظ بثلاثة لترات ونصف من الدم ، استعدادًا للعملية وما بعدها ، ولكنهم إلى اضطُروا نقل الكمية كاملة إلى عروقى ، فى محاولة لإنقاذ حياتى ..

وكما يشبه المعجزة ، انتهت العملية بنجاح ، بعد أكثر من أربع ساعات متصلة ، ولم أعلم بما حدث فى حجرة العمليات ، إلا بعد أن استعدْت وعيى فى المساء ، وأخبرنى الدكتور مصطفى بالأمر ، وما أدهشنى وأفزعنى حقًا ، أنه بعد ثلاث لترات ونصف من الدم ، كانت نسبة الهيموجلوبين فى دمى نصف النسبة المطلوبة فحسب ؛ مما حتّم نقل كمية أخرى من الدم الطازج غير المختزن ، وبسرعة منحتنى زوجتى بعض دمها ، وكذلك فعل ابنى ، ثم جاء زوج شقيقتى المهندس خالد فكرى ، وأضاف إليهما كمية مماثلة ، وارتفعت نسبة الهيموجلوبين ، ولكنها لم تبلغ المعدّل المطلوب .. وهنا طلبت من الصديقين محمد فتحى ومحمد سامى ، إعلان الأمر للقرّاء .. وفور أن فعلا ، شاهدت

أعظم مظاهرة حب ، فى حياتى كلها ؛ فقد توافد القراء بالعشرات على المستشفى ، وكلهم يصرّون على التبرُّع بدمهم ، حتى ضج بنك الدم بالشكوى ، وأخبرنا أنه عاجز عن العمل ، بسبب كثرة المتبرعين ..

ولابد وأن أتقدّم هنا بالشكر والعرفان لكل الأصدقاء والقرّاء ، الذين ساندونى ، والذين تجرى دماؤهم فى عروقى الآن ، وللأستاذ الدكتور إبراهيم أبو الفتوح ، والأستاذ الدكتور حازم أبو الفتوح ، ومساعديهما ، الذين عانَوْا الكثير فى عمليتى الجراحية ، وأقدّم شكرًا خاصًا جدًا للأستاذ الدكتور مصطفى أيمن ، على كل ماقدّمه ويقدّمه لى من رعاية واهتمام ، بأسلوب هو قدوة لكل من يقتدى ، فى الطب والحياة ، وأقدّم شكرًا متميّزًا للأصدقاء شريف شوقى ومحمد فتحى ومحمد سامى وتامر إبراهيم ، وأحمد خالد ، وياسمين شفيق ، على مساندتهم لى ، وأخص بالشكر الجزيل أستاذى ووالدى الروحى الأستاذ حمدى مصطفى ، والقارئ الصديق راشد عبد الرحمن راشد الزيانى من البحرين ، اللذين قدّما المساهمة الأكبر فى هذه المحنة ..

ولقد تجاوزت الأزمة ، بحمد الله ورعايته ، ورعاية الأصدقاء والعائلة ، وقرّرت أن أنشر تفاصيلها كلها ، عندما أعود إلى منزلى ،

ولكن بقيت مشكلة الفشل الكلوى وزرع الأعضاء بلا حل ؛ فالإحصائيات تقول بأنه لدينا ثلاثة ملايين مريض فشل كلوى سنويًا ، وبحسبة بسيطة ، سندرك أننا سنصبح جميعًا شعبًا مريضًا ، خلال عشرين عامًا فحسب ، ما لم يبدأ المسئولون دراسة جادة ، وصحيحة ، ولا تعتمد على مبدأ (كله تمام يافندم) ؛ لمعرفة الأسباب الحقيقية للإصابة بالفشل الكلوى ، والمعوقات الفعلية ، أمام قانون نقل الأعضاء ، الذى لن يفوق تغيير الدستور كله فى أسبوعين ؛ لأن قائمة الانتظار ضخمة ، وما دامت الدولة عاجزة عن منع المرض ، فلا ينبغى أن تمنع وسائل الشفاء منه أيضًا ، ولا ينبغى أن تعكس فشلها على المرضى والمحتاجين ، وما دام مجلس الشعب بجلالة قدره ، يقرّ تغييرات دستورية فى أسبوعين ، فلا أقل من أن يسترجع ذاكرته ، ويدرك أنه مجلس الشعب ، وليس مجلس الحاكم ، وإلا ... فعلى مصر السلام .

* * *

الزهايمر

(قصة كاملة)

● فجأة ، دوت تلك الرصاصة ، فى ذلك المستشفى الكبير ..

رصاصة تردَّد صداها فى المكان كله ، وهى تنبعث من حجرة كبير الأطباء فى المستشفى ، الدكتور (ثروت شاكر) ..

وبسرعة كبيرة ، ووسط حالة من الذعر والهلع ، أسرع رجال أمن المستشفى إلى الحجرة ، واقتحموها ، ليجدوا أمامهم ذلك المشهد الرهيب ..

الدكتور (ثروت) ملقى فى منتصف الحجرة ، جثة هامدة ، مصابة برصاصة فى منتصف الجبهة ، والدماء تحيط برأسه ، فى شكل بركة قرمزية مخيفة ، وباب الشرفة المطل على الحديقة الغارقة فى الظلام مفتوح على مصراعيه ..

وهناك ، فى الركن ، كان يجلس (مندور) ..

رجل أعمال شهير ، سقط منذ ما يقرب من ستة أشهر ، فى براثن مرض (الزهايمر) الشديد ، والدكتور (ثروت) يسعى لعلاجه ، منذ شهر كامل ..

كان يجلس صامتًا ، محدقًا فى جثة طبيبه المعالج ، بتلك النظرة الشاردة الذاهلة ، التى اعتادها منه الجميع ، فى الأشهر الأخيرة ..

أما المسدس ، سلاح الجريمة ، فكان ملقى فى الركن البعيد ، على نحو يوحى بأن القاتل قد ألقاه للتخلُّص منه ، بعد أن ارتكب جريمته ..

ووسط حالة الذعر الشديد ، التى أصابت الجميع ، تقدَّم (أمجد) ، مدير أمن المستشفى نحو رجل الأعمال السابق ، وسأله فى توتر :

ـ ماذا حدث ؟!.. من فعل هذا ؟!

رفع (مندور) عينيه إليه بنظرة شاردة ، وسأله فى خفوت حائر :

ـ من .. من أنت ؟!

هتف به (أمجد) فى عصبية :

ـ أنا (أمجد) .. مدير أمن المستشفى .. هل نسيتنى يا أستاذ (مندور) ؟!

ظلت عينا (مندور) تحملان الحيرة نفسها ، وهو يغمغم :

ـ أهلاً يا (أمجد) .. كيف حالك ؟!

هتف (أمجد) :

ـ أخبرنى بالله عليك .. ماذا حدث ؟!

حدَّق (مندور) فيه بنظرة خاوية ، وكأنه لا يفهم السؤال ، ثم تمتم فى حيرة :

ـ حدث لمن ؟!

صاح (أمجد) ، وقد نفِد صبره :

ـ من قتل الدكتور (ثروت) ؟

كان عدد من أطباء المستشفى قد أسرع يفحص جثة القتيل ، ويحاول عبثًا إسعافه ، قبل أن يرفع أحدهم رأسه ، قائلاً فى مرارة :

ـ لا تحاول يا سيِّد (أمجد) .

كان المتحدِّث هو الدكتور (نادر) إخصائى المخ والأعصاب بالمستشفى ؛ لذا فقد أولى (أمجد) عبارته اهتمامًا بالغًا ، وهو يسأله فى عصبية :

ـ ولماذا ؟!

أشار (نادر) بيده ، قائلاً :

ـ السيِّد (مندور) مصاب بمرض (الزهايمر) ، إنه يعانى من حالة فِقدان ذاكرة عشوائى ، أى إنه قد يتذكَّر حدثًا قديمًا جدًّا ،

وينسى ما رآه منذ لحظات قليلة .

هتف (أمجد) ، وقد تضاعفت عصبيته :

ـ مستحيل أن يكون قد نسى ما حدث .. إنها مسألة دقائق !

تنهَّد (نادر) ، قائلاً :

ـ ها هو ذا أمامك .. هل يبدو متذكرًا ؟!

أدار (أمجد) عينيه إلى (مندور) فى عصبية ، ورأى تلك الملامح الخاوية الحائرة ، فعض شفتيه فى غضب ، قبل أن يلتفت إلى (نادر) ، ويسأله فى شىء من الحدة :

ـ من سواك يعرف هذا ؟!

بدا السؤال عجيبًا ، بالنسبة لـ (نادر) ، إلا أنه أجاب ، فى حذر لم يَدْرِ سببه :

ـ أى طبيب متخصِّص ، يمكن أن ..

قاطعه (أمجد) ، فى حدة أكثر :

ـ مَن مِن العاملين فى هذا المستشفى ؟!

تردَّد الدكتور (نادر) لحظة ، قبل أن يتضاعف حذره ، وهو يجيب :

ـ الدكتور (جلال) ، والدكتور (عرابى) ، والدكتور (سمير) .

التقط (أمجد) نفسًا عميقًا ، وهو يعتدل ، ويشدّ قامته ، قائلاً بمنتهى الحزم :

ـ أريد ثلاثتهم هنا معك .. فورًا .

انبعث صوت غاضب ، من بين الموجودين ، يقول :

ـ ولماذا ؟!.. هل تتهمنا بارتكاب الجريمة ؟!

استدار إليه (أمجد) فى صرامة ، قائلاً :

ـ ليس من سلطتى أن أتهم أحدًا يا دكتور (جلال) .. ولكن من الواضح أن القاتل شخص يعرف جيدًا طبيعة مرض السيِّد (مندور) ، بدليل أنه قد تجاهل وجوده بالحجرة ، ولم يحاول التخلُّص منه ؛ لإخفاء ما يدينه .

قال الدكتور (جلال) فى حدة :

ـ وفى رأيك أن هذه القرينة تجعل أطباء المخ والأعصاب الأربعة بالمستشفى متهمين !

هزَّ (أمجد) رأسه نفيًا فى صرامة ، مجيبًا :

ـ بل مشتبه فيهم فحسب يا دكتور (جلال) .. هذا هو المصطلح الصحيح .

ودون أن يمنحه فرصة للتعليق ، التفت إلى أحد رجال الأمن المصاحبين له ، قائلاً بلهجة آمرة صارمة :

ـ هذه الحجرة أصبحت الآن مسرح جريمة .. احرص على إخراج الجميع منها ، وعدم المساس بأى شىء داخلها .

ثم التفت إلى آخر ، متابعًا :

ـ أما أنت ، فأحضر السيد (مندور) إلى مكتبى ، وكذلك الأطباء الأربعة ، لحين وصول رجال الشرطة .

قالها ، واندفع مغادرًا الحجرة ، وكأنما يعلن أنه ليس مستعدًا لسماع أية تعليقات أو مداخلات ..

ولم تمض دقائق خمس ، حتى كانت أوامره كلها قد نفذت ..

وفى توتر شديد ، وقف الأطباء الأربعة أمامه ، فى حجرة مكتبه ، فى حين جلس (مندور) على مقعد متحرك فى الركن ، وعيناه ما زالتا تحملان تلك النظرة الخاوية الشاردة ..

ولثوان ، اكتفى (أمجد) بالتحديق فى وجوه الجميع ، فى صمت تام ، قبل أن يسأل فجأة :

ـ ما علاقتك بالدكتور (ثروت) ؟!

تبادل الرجال الأربعة نظرة متوترة ، قبل أن يقول الدكتور (عرابى) فى عصبية واضحة :

ـ أى سؤال هذا ؟!

أجابه (أمجد) فى صرامة :

ـ سؤال واضح وصريح يا دكتور (عرابى) ، ولست أدرى لماذا استفزك إلى هذا الحد !

احتقن وجه الدكتور (عرابى) فى شدة ، فى حين غمغم الدكتور (سمير) فى خبث مستفز :

ـ ربما بسبب الخلافات القديمة .

التفت إليه (عرابى) بنظرة غاضبة ، فى حين تساءل (أمجد) فى سرعة :

ـ أى خلافات ؟!

هزَّ (عرابى) رأسه فى عصبية ، قائلاً :

ـ لا توجد أية خلافات .

هزَّ (سمير) كتفيه ، وغمغم بنفس الخبث :

ـ ربما !

نقل (أمجد) بصره بينهما ، ثم عقد ساعديه أمام صدره ، وهو يقول فى صرامة شديدة :

ـ فليكن .. لو أنك تعرف شيئًا ، عن أية خلافات ، بين الدكتور (عرابى) والدكتور (ثروت) ، فهذا هو الوقت المناسب للإفصاح عنها .

تضاعفت عصبية (عرابى) ، على نحو واضح ، فى نفس الوقت الذى اتسعت فيه ابتسامة (سمير) الخبيثة ، وهو يقول :

ـ إنه ليس خلافًا خفيًا ، فالجميع يعلم أن الدكتور (عرابى) كان غاضبًا بشدة ، عندما حصل الدكتور (ثروت) على منصب كبير الأطباء بالمستشفى ، وأنه أعلن أكثر من مرة أنه الأحق بالمنصب .

قال الدكتور (عرابى) فى حدة :

ـ هذا أمر طبيعى .. أنا الأقدم فى تاريخ التخرج ، وحتى فى الخبرة الميدانية ، و ...

قاطعه (أمجد) فى صرامة :

ـ وهل يمنحك هذا الحق فى قتله ؟

انتفض (عرابى) فى حدة ، وهو يقول مستنكرًا :

ـ قتله ؟!.. ومتى كانت خلافات المناصب مبررًا للقتل وسفك الدماء ؟!

اندفع (نادر) يقول :

ـ لماذا إذن أشرْت ، فى حديثك الأخير معنا ، إلى أن فرصتك الوحيدة فى نيل المنصب ، هى موت الدكتور (ثروت) !

اعتدل (أمجد) فى انتباه ، وبدت له تلك الواقعة شديدة الخطورة ، ولكن الدكتور (عرابى) صاح فى ثورة :

ـ على الأقل ، أنا لم أهدده بالقتل صراحة ، كما فعلت أنت !

وامتقع وجه الدكتور (نادر) فى شدة ..

وكانت مفاجأة ...

* * *

« قناع .. قناع .. »

هتف رجل الأعمال المريض (مندور) بتلك الكلمات فجأة ، فى تلك اللحظة ، التى توتر فيها الموقف كله ، فاستدارت العيون كلها إليه فى توتر ، وسأله (أمجد) فى لهفة :

ـ أى قناع يا سيِّد (مندور) ؟!

بدا الرجل يقظًا تمامًا ، وهو يجيبه فى حماس :

ـ دخل الحجرة ، وهو يرتدى ذلك القناع .. قناع العمليات الجراحية .. قناع الـ ...

بتر عبارته بغتة ، قبل أن تعود تلك النظرة الحائرة الشاردة إلى عينيه ، وهو يتلفَّت حوله ، متسائلاً :

ـ أهذه حجرتى ؟!

اتجه (أمجد) نحوه ، وربَّت على كتفه ، قائلاً :

ـ كلا يا سيِّد (مندور) .. إنها ليست حجرتك .

غمغم الرجل فى حيرة :

ـ ولماذا لست فى حجرتى ؟!

أجابه (أمجد) مشفقًا :

ـ ستعود إليها قريبًا يا سيِّد (مندور) .. اطمئن .

هزَّ الرجل رأسه ، بنفس الحيرة والشرود ، قبل أن يرفع عينيه إليه ، متسائلاً بابتسامة مرتبكة :

ـ أشكرك يا ... بالمناسبة .. ما اسمك ؟

زفر (أمجد) فى توتر ، والتفت إلى (نادر) ، وسأله ، متجاهلاً سؤال (مندور) الحائر :

ـ ما قصة التهديد بالقتل هذه يا دكتور (نادر) ؟!

لوَّح (نادر) بذراعه فى عصبية ، قائلاً :

ـ لم أكن أقصد هذا فعليًّا .. كانت لحظة غضب فحسب .

عاد (أمجد) يعقد ساعديه أمام صدره ، متسائلاً :

ـ والسبب ؟

بدا (نادر) شديد التوتر ، وهو يقول :

ـ لست أذكره .

همَّ (أمجد) بإلقاء سؤال آخر ، عندما اندفع الدكتور (جلال) ، يقول فى استنكار :

ـ أى جواب سخيف هذا ؟!

تضاعف توتر (نادر) ، وأشاح بوجهه فى عصبية ، فى حين تساءل (أمجد) بمنتهى الاهتمام :

ـ ولماذا تعتبره كذلك ؟!

هتف الدكتور (جلال) :

ـ لأننا جميعًا نعرف السبب ، فكيف يمكن أن ينساه الدكتور (نادر) ؟!

وهنا ، أضاف (سمير) ، بنفس الخبث :

ـ خاصة وأنه كان يتعلق بمسار حياته كله .

بدا ارتياح عجيب ، فى عينى الدكتور (عرابى) ، وكأنما أسعده أن يُلقى الاتهام على سواه ؛ مما جعل (أمجد) يقول فى حدة :

ـ يبدو أنكم قد أثرتم فضولى ، دون أن يحاول أحدكم إشباعه .

عاد الجميع يتبادلون نظرة متوترة ، ثم اندفع (نادر) يقول بمنتهى العصبية :

ـ فليكن .. لقد أراد إنهاء تعاقدى مع المستشفى ، فى منتصف الموسم .

سأله (أمجد) بسرعة :

ـ ولماذا ؟

أجابه (نادر) بنفس السرعة والعصبية :

ـ بسبب خطأ بسيط .

قال (سمير) فى سخرية :

ـ بسيط ؟!.. لقد أصاب مريضًا شابًا بشلل رباعى دائم .

هتف (نادر) :

ـ كل عمليات المخ لها مضاعفات محتملة .

قال (سمير) فى سرعة :

ـ وأخطاء بشعة أيضًا .

احتقن وجه (نادر) فى شدة ، واحتبست الكلمات فى حلقه ، و ...

وفجأة ، اندفع (مندور) يقول :

ـ عمليات .. قناع العمليات .

استدار إليه الجميع مرة أخرى فى توتر ، فى حين انتبه (أمجد) فجأة إلى ما يعنيه هذا ..

وفى اهتمام بالغ ، اتجه نحوه ، يسأله :

ـ القاتل كان يرتدى قناع عمليات جراحية يا سيِّد (مندور) ..

أليس كذلك ؟

تطلَّع إليه (مندور) بشروده التقليدى ، وهو يقول :

ـ عمليات .. طبيب .. قناع .

كلمات متفرعة ، فهم منها (أمجد) الكثير ..

والكثير جدًا ..

وفى ثقة ، عاد يواجه الأطباء الأربعة ، قائلاً :

ـ الأمر واضح للغاية .. الذى ارتكب الجريمة طبيب ، كان يرتدى زى العمليات الجراحية .

غمغم الدكتور (جلال) فى عصبية :

ـ عديدون يرتدون ذلك الزى ، فى هذا الطابق بالذات ، حيث توجد ثلاث حجرات للعمليات الجراحية .

ابتسم (أمجد) ، قائلاً :

ـ الأمر ليس بالبساطة التى تصفها .. صحيح أنه ربما ترى العديدين فى الزى الجراحى ، فى هذا الطابق ، ولكننا نبحث عن طبيب محدد ، يعرف الكثير عن مرض (الزهايمر) وكان يجرى عملية جراحية ، قبل الجريمة مباشرة .

وعاد يدير عينيه فى وجوههم ، مضيفًا فى صرامة :

ـ السؤال إذن هو : من منكم تنطبق عليه هذه الأوصاف ؟

لم يكن بحاجة إلى جواب مباشر ، فقد اتجهت العيون كلها مباشرة إلى الدكتور (جلال) ، الذى قال فى عصبية :

ـ هذا ليس دليلاً .

سأله (أمجد) فى صرامة :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

هتف (جلال) فى حدة :

ـ بالطبع .. عمليات المخ لا يجريها طبيب واحد ، أو حتى طاقم جراحى بسيط ، وهذا يعنى أن لدىَّ أكثر من عشرة شهود ، على تواجدى فى حجرة العمليات .

هزَّ (أمجد) كتفيه ، قائلاً :

ـ وماذا بعد خروجك منها ؟!

أجابه فى عصبية :

ـ لقد عدت إلى حجرتى مباشرة .

قال (أمجد) ، ملوِّحًا بسبَّابته فى وجهه :

ـ الجريمة لم تستغرق سوى لحظات قليلة ، وحجرتك فى نفس مستوى حجرة الدكتور (ثروت) ، ويمكنك أن تنتقل منها إليه ، عبر الشرفة المشتركة ، فتطلق النار على رأسه ، وتعود إلى مكتبك فى أقل من نصف دقيقة ، دون أن يشعر أحد بغيابك .

احتقَن وجه الدكتور (جلال) فى شدة ، وهو يقول :

ـ والدافع .. ماذا عن الدافع أيها العبقرى ؟!

وهنا ، اندفع (سمير) يقول فى حماس :

ـ أنا أعرف الدافع .

تضاعف احتقان وجه الدكتور (جلال) ، وأطلَّت من عينيه نظرة مذعورة ، و(أمجد) يتساءل فى لهفة :

ـ وما هو ؟!

أشار (سمير) بسبَّابته ، قائلاً فى حماس أكثر :

ـ المستشفى الخاص .

هتف الدكتور (جلال) :

ـ أى سخف هذا ؟!

ولكن (سمير) تجاهله تمامًا ، وهو يواصل :

ـ الدكتور (ثروت) كان غاضبًا للغاية ، عندما عرف أن الدكتور (جلال) يمتلك مستشفى خاصًّا ، وأنه يسعى طوال الوقت للاستيلاء على مرضى المستشفى هنا ، ونقلهم للعلاج فى مستشفاه الخاص .

تألَّقت عينا (أمجد) ، وهو يتساءل :

ـ وماذا كان رد فعله ؟

هزَّ (سمير) كتفيه ، قائلاً :

ـ لقد قرَّر إبلاغ الجهات القانونية .

والتقط (أمجد) نفسًا عميقًا ..

فمع معلومة كهذه ، بدا الأمر كأن الجريمة قد انكشفت فى وضوح ..

وأن القاتل قد سقط ..

و ...

ولكن الدكتور (جلال) قطع سير أفكاره ، وهو يقول فى عصبية شديدة :

ـ مجـرد تهـديد أجـوف .. للاستهلاك الداخلى فحسب .. مـن المستحيل أن يبلغ الدكتور (ثروت) الجهات القانونية بهذا .

قال (سمير) فى حماس :

ـ لأنك قتلته .

أجابه الدكتور (جلال) فى حدة :

ـ بل لأنه كان شريكى السرى فى ذلك المستشفى الخاص .

وكانت مفاجأة جديدة ..

أكثر عنفًا ...

* * *

اتسعت العيون كلها ، فى ذهول مستنكر ، والجميـع ينظـر إلـى الدكتور (جلال) ، والشك يسيل مع النظرات سيلاً ..

وبكل الغضب ، هتف الدكتور (سمير) :

ـ كذب .. هذا كذب .

أجابه الدكتور (جلال) فى عصبية :

ـ هل تحب الاطلاع على الأوراق ، التى تثبت قولى هذا ؟!

هتف (عرابى) فى غضب :

ـ ليس قولاً ، بل هو اتهام حقير .

صاح الدكتور (جلال) :

ـ الأوراق فى مكتبى ، لمن يرغب فى مطالعتها ، وأنـا مستعد لتحويلها إلـى الطب الشرعى ؛ لإثبـات صحـة توقيـع الدكتـور (ثروت) عليها .

أشار (أمجد) بيده للجميع ، يدعوهم إلى الصمت ، وهو يسأل (جلال) فى صرامة :

ـ لماذا تشاجر معك الدكتور (ثروت) إذن بشأن هذا ، مـا دام متورطاً فيه ؟!

أجابه (جلال) فى عصبية :

ـ لأن أحدهم هدده بكشف السر ، وأراد تبرئة نفسه ، وإلقاء التبعة كلها على كاهلى .

قال (أمجد) فى صرامة :

ـ ولهذا قتلته .

صرخ (جلال) :

ـ إننى لم أقتل أحدًا .

رفع (مندور) سبَّابته ، فى هذه اللحظة ، وهو يقول :

ـ طبيب .. قناع .. قتل .

كلماته هذه فجَّرت كل ما تبقى من أعصاب الدكتور (جلال) ، فاندفع نحو (مندور) ، صارخًا :

ـ أنت .. أنت المسئول عن كل هذا .

تراجع رجل الأعمال السابق فى مقعده المتحرِّك ، وانقضَّ عليه (جلال) فى شراسة شديدة ، ودفع المقعد ، صارخًا :

ـ أنت السبب .

أسرع (مندور) يضغط الفرامل اليدوية لإطارَىْ مقعده المتحرِّك ، حتى لا يسقط أرضًا ، أو يندفع بمقعده ، وهو يصرخ :

ـ النجدة .. النجدة !

وهنا ، وثب (أمجد) نحو الدكتور (جلال) ، وجذبه من ياقته ، هاتفًا :

ـ أهذا اعتراف صريح أم ماذا ؟!

استدار إليه (جلال) فى شراسة ، وكال له لكمة كالقنبلة ، وهو يصرخ فى انهيار :

ـ ابتعد أنت أيضًا !

سقط (أمجد) أرضًا ، مع عنف الضربة ، ولم ينتظر (جلال) سقوطه ، وهو يثب نحو (مندور) ، ويقبض على عنقه بكفيه ، صارخًا :

ـ لولاك ما حدث كل هذا .. مُتْ .. مُتْ !

ولكن الدكتور (سمير) اندفع نحوهما ، وهوى على مؤخرة عنق الدكتور (جلال) بضربة قوية ، ارتجَّ لها جسد هذا الأخير ، قبل أن يسقط أرضًا فاقدًا الوعى ، وسعل (مندور) فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ أشـ .. أشكرك يا دكتور (سمير) .

نهض (أمجد) فى هذه اللحظة ، وهو يدعك ذقنه فى موضع الضربة ، قائلاً :

ـ أظن هذا يحسم الأمر .

تساءل الدكتور (عرابى) ، فى شىء من اللهفة :

ـ هل .. هل تعتقد أنه القاتل ؟!

تساءل (أمجد) :

ـ ألا يبدو هذا واضحًا ؟

استعاد (سمير) ابتسامته الخبيثة ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

وهنا اندفع (نادر) ، يقول فى عصبية :

ـ ليس بالضرورة .

سأله (أمجد) :

ـ ماذا تعنى ؟

أجابه ، وعصبيته تتزايد :

ـ أعنى أن الرجل وجد نفسه متهمًا ، فى جريمة قتل ، ففقد أعصابه ، وفعل ما فعل ، وهذا ليس دليلاً على أى شىء .

قال (سمير) فى خبث :

ـ هذا من وجهة نظرك ، ولكن ...

قاطعه (نادر) فى حدة :

ـ لماذا تتحدث طوال الوقت ، وكأنك برىء من التهمة ، براءة الذئب من دم ابن (يعقوب) ؟!.. ألست جزءًا من هذه المشكلة ؟!

انتفض جسد (سمير) ، وهو يقول :

ـ أنا ؟!

أجابه الدكتور (عرابى) فى غضب :

ـ بالتأكيد .. أتظننا نجهل من هدَّد الدكتور (ثروت) بكشف الأمر ؟!

قال فى حدة :

ـ أنا لم أفعل هذا .

صاح به (نادر) :

ـ بل فعلت .. لقد شاهدتك تتحدَّث معه ، قبل ساعات قليلة من مصرعه .. صحيح أننى لم أسمع حديثكما ، ولكن وجه الدكتور (ثروت) احتقن بشدة ، مما يوحى بأن ما سمعه منك لم يَرُق له أبدًا .

لوَّح (سمير) بذراعه ، هاتفًا :

ـ هراء .. مجرد استنتاج سخيف .

قال الدكتور (عرابى) ، فى صرامة عصبية :

ـ وماذا عن تواجدك فى مكتبه ، قبيل مصرعه مباشرة ؟!

احتقن وجه (سمير) ، وهو يقول :

ـ مجرد مصادفة .

أجابه (أمجد) فى صرامة :

ـ ولكنه يجعلك آخر من رآه حيًّا .

ارتبك (سمير) بشدة ، وقال :

ـ ولكننى لم أقتله .. أقسم إننى لم أفعل .

سأله (أمجد) :

ـ ماذا قلت له إذن ؟

ازدرد (سمير) لعابه فى صعوبة ، وهو يدير عينيه فى وجوههم ، قبل أن يقول :

ـ لقد أخبرته أننى أعلم بأمر المستشفى الخاص ، وبأن بعض رجال الأعمال يمولونها سرًّا ، كوسيلة لغسيل أموالهم القذرة(*) ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، فسأله (أمجد) فى حزم ، لم يَخْلُ من رنة لهفة :

ـ وماذا ؟!

تردَّد (سمير) لحظة ، ثم قال :

ـ وبأنه يساعد بعض رجال الأعمال ، بوسائل غير مشروعة ؛ ليتهربوا من أحكام قضائية ، أو ديون باهظة .

انعقد حاجبا (أمجد) ، وهو يقول :

ـ إنها اتهامات بالغة الخطورة .

هتف (سمير) :

ـ بالطبع .

(*) غسيل الأموال : مصطلح يُطلق على عملية إدراج الأموال ، التى تم جنْيُها بوسائل غير شرعية ، فى قنوات شرعية رسمية ، بحيث تبدو كأنها أموال قانونية تمامًا .

ثم استدرك فى عصبية :

ـ ولكنها لا تبرّر واقعة قتل .

سأله (أمجد) :

ـ ما الذى تعنيه بهذا ؟

أجابه فى سرعة :

ـ حديثى أخافه ، وجعله يسعى لإرضائى بأية وسيلة ، فلماذا أقتله ؟!.. المفترض والحال هكذا ، أن تكون حياته أكثر فائدة لى من موته .

انبرى (مندور) يقول فجأة :

ـ موت .. طبيب .. قناع .

انعقد حاجبا (أمجد) أكثر ، وهو يشير إليه ، متسائلاً :

ـ أحالته بهذا السوء بالفعل ؟!

هزّ (نادر) رأسه ، قائلاً :

ـ إنها لم تكن أبدًا بهذا السوء .. ربما هى صدمة وقوع

جريمة القتل أمام عينيه ؛ فهو يتصرّف كمعتوه ، وليس كرجل مصاب بفقدان ذاكرة عشوائى .

سأله (أمجد) فى اهتمام :

ـ هل تعتقد أنه لو تجاوز الصدمة ، سيمكنه إرشادنا إلى ما يفيد فى كشف القاتل ؟

صمت (نادر) بضع لحظات مفكرًا ، قبل أن يجيب فى حذر :

ـ ربما !

انفرجت شفتا (أمجد) ، ليلقى سؤالاً آخر ، ولكن فجأة ، وكما يحدث فى أفلام السينما ، تداعت فى رأسه مجموعة من المشاهد والكلمات ..

ثم تركّز ذهنه على كلمة ..

كلمة واحدة ، لم يدر كيف لم ينتبه إليها فى حينها ..

كلمة كشفت أمامه اللغز كله ..

ودفعة واحدة ...

* * *

لثوان ، تجمّد (أمجد) تمامًا ، وهو يستعيد الأحداث كلها ..

مصرع الدكتور (ثروت) ..

مسرح الجريمة ..

المتهمين ..

أقوالهم ..

خلافاتهم ..

دوافعهم ..

ثم توقف عند كلمة واحدة ..

ومشهد واحد ..

واتضحت الصورة أمام عينيه ..

اتضحت ..

واتضحت ..

واتضحت ..

ومع وضوحها ، انزاحت أمامها كل الشكوك ، واحدًا بعد الآخر ، حتى بدت جلية ، على نحو لا يمكن أن يتطرّق إليه الشك ..

وبعد نفس عميق ، أدهش الجميع ، قال (أمجد) بمنتهى الارتياح ، وقد حملت عيناه بريقًا عجيبًا :

ـ لقد توصّلت إليه !

سأله (نادر) فى حيرة :

ـ إلى من ؟!

التفت إليه ، مجيبًا بكل الحزم :

ـ القاتل .

اتسعت عينا (سمير) فى ارتياع ، فى حين انكمش الدكتور (عرابى) فى مكانه ، وكأنه يتمنى أن يتلاشى من الوجود ، فى حين هتف (نادر) ، فى عصبية شديدة ، ولهجة غير مصدّقة :

ـ ومن هو ؟!.. من ؟!

أشار (أمجد) بسبّابته ، مجيبًا :

ـ شخص حاد الذكاء ، نجح فى خداع الجميع ، وتصوّر أنه سيفلت بفعلته ، كالشعرة من العجين .

هتف الدكتور (نادر) مرة أخرى :

ـ من بالله عليك ؟!

وهنا ، أدار (أمجد) عينيه فى وجوههم ، ثم قال فى حزم :

ـ هذا الرجل .

واتسعت العيون كلها بكل دهشة الدنيا ..

بل بكل ذهولها ..

فسبّابة (أمجد) كانت تشير إلى آخر شخص بالحجرة ، يمكن أن يخطر ببال الجميع ..

إلى (مندور) ..

وبنفس النظرة الخاوية ، تطلّع (مندور) إلى السبّابة المشيرة إليه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين قال الدكتور (عرابى) فى عصبية :

ـ هل جننت ؟!.. إنه مريض ، ولا يمكنه تنفيذ خطة محبوكة مسبقًا .

قال (أمجد) فى ثقة :

ـ ولكن الدكتور (نادر) أكّد منذ قليل ، أنه يتصرّف كمعتوه ، وليس كمريض (الزهايمر) ..

قال (سمير) فى ذهول :

ـ إنه تأثير الصدمة !

هزّ (أمجد) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ بل هو فِقدان للمرشد ، الذى كان يوجهه إلى كيفية تمثيل دور مريض الزهايمر .

وعاد ببصره إلى (مندور) ، مضيفًا :

ـ الدكتور (ثروت) .

استقبله (مندور) بنفس النظرة الخاوية الشاردة ، ولكنه واجهه بحزم هذه المرة ، وقال وكأنه يتحدّث إليه مباشرة :

ـ الجريمة كانت واضحة للغاية ، ولكن تمثيليتك خدعتنا جميعًا .. الدكتور (ثروت) أصيب بطلق نارى ، داخل حجرة مكتبه ، التى لم يكن فيها سواه وسواك .. فلماذا لم تتجه إليك أصابع الاتهام ، منذ اللحظة الأولى ؟!

لم تتغيَّر نظرة (مندور) ، فتابع (أمجد) ، وكأنه لا ينتظر تعليقه :

ـ بسبب لعبة مرض (الزهايمر) هذه .

انتفض الدكتور (عرابى) ، وهو يقول :

ـ استنتاجك هذا يبدو أكثر ما سمعت فى حياتى حماقة !

هزَّ (أمجد) كتفيه ، وقال مبتسمًا :

ـ ربما .. ولكن حاول أن تتخيَّل الصورة التى سأرويها لك الآن .

وأشار بيديه موضحًا ، وهو يتابع :

ـ السيِّد (مندور) كرجل أعمال ، له أرباح كثيرة غير مشروعة ؛ مما يدفعه إلى التعاون مع الدكتور (ثروت) ؛ لإنشاء مستشفى

خاص ، يمكن عبره تمرير الأرباح غير المشروعة ، بوسيلة غسيل أموال مبتكرة ، وفى الوقت ذاته ، يساعد الدكتور (ثروت) (مندور) ، على الفرار من بعض المسئوليات الجنائية ، عن طريق ادعاء الإصابة بمرض (الزهايمر) .. وكان من الممكن أن يسير كل شىء على ما يرام ، وأن يفلت (مندور) من العقوبة ، ثم يتظاهر بالشفاء من المرض بوسيلة ما .

وتوقف ليلتقط أنفاسه ، قبل أن يواصل :

ـ ولكن (سمير) ظهر فجأة ، ليفسد كل شىء .

غمغم (سمير) فى عصبية :

ـ أنا ؟!

تابع (أمجد) ، وكأنه لم يسمع :

ـ ظهر ليهدد الدكتور (ثروت) بكشف سره ؛ مما أصابه بموجة ذعر ، جعلته يتشاجر مع الدكتور (جلال) ، الذى يشاركه المستشفى الخاص ، ثم دفعته لاستدعاء (مندور) ؛ لكى يخبره أن أمرهما كاد ينكشف ، ويطالبه بترك المستشفى فى الحال .

ظلت ملامح (مندور) خاوية جافة ، وهو يستمع إليه ، إلا أنه واصل بمنتهى الثقة :

ـ ولأن التراجع ، فى هذه المرحلة ، كان يهدد بإفساد كل شىء ، لم يكن أمام (مندور) سوى أن يقتل (ثروت) ، معتمدًا على أن أحدًا لن يشك بارتكابه الجريمة قط .

هزَّ (سمير) رأسه ، قائلاً :

ـ قصة لا يمكن أن يصدقها أحد .

أشار إليه (أمجد) ، قائلاً :

ـ قلْ لى إذن ، لماذا يستدعى كبير الأطباء مريض (الزهايمر) إلى مكتبه ، وهو يعلم أن كل ما سيناقشه معه ، سينساه حتمًا ، خلال ساعات قليلة ؟!

صمت الجميع ، وتبادلوا نظرة حائرة مرتبكة ، فتابع (أمجد) :

ـ (مندور) أطلق النار ، ومسح بصماته عن المسدس ، وألقاه فى الركن البعيد ، وجلس متظاهرًا بالشرود والحيرة ، والجميع يقتحم المكتب .

غمغم الدكتور (عرابى) :

ـ مستحيل !.. إنه مريض بـ (الزهايمر) ، و ...

قاطعه (أمجد) فى حزم :

ـ راجع المشاهد يا دكتور (عرابى) ، وستدرك أنه مخادع تمامًا .. لقد هاجمه الدكتور (جلال) ، وكاد يفتك به ، واتهمه بأنه المسئول عن كل ما يحدث ؛ لأنه يعرف ، كشريكه الدكتور (ثروت) ، دوره فى اللعبة ، وعندما هاجمه ، تحرك (مندور) بحركة غريزية ، وضغط فرامل مقعده ، أى إنه كان يذكر موضعها وكيفية عملها تمامًا ، على الرغم من إصابته بفقدان ذاكرة عشوائى ، وحتى بعد أن أنقذه الدكتور (سمير) ، قام بشكره رسميًا ، مما يتعارض مع عجزه المزعوم عن تذكرى منذ الحادث .

حملت عينا (مندور) لمحة مختلفة هذه المرة ، فى حين غمغم الدكتور (عرابى) :

ـ كل هذه ليست أدلة حاسمة .

هزَّ (أمجد) كتفيه ، وهو يقول ، متطلعًا إلى (مندور) مباشرة :

ـ فليكن .. سأتهمه رسميًا ، وأطلب عرضه على لجنة من الأطباء ، وستقوم الشرطة بمراجعة سجلاته ، وفحص ملفاته ، وأراهنكم أن الأمر سيحتاج إلى أقل من أسبوع واحد ، لكشف حقيقته كاملة .

ظلّت العيون تحمل الشك وعدم التصديق ، حتى قال (مندور) فجأة ، بلهجة تخالف كل ما اعتادوه منه :

ـ كان ينبغى أن أقتلك أنت !

واتسعت العيون كلها فى ذهول ، وعقد (أمجد) ساعديه أمام صدره ، وهو يبتسم فى ثقة .. ومن بعيد ، تعالى صوت أبواق سيارات الشرطة ، وهى تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب .

* * *

(تمت بحمد الله)

كوكتيل 2000
روايات مصرية للجيب
حبيبى
دراسة
9ـ أنانية الحب

إهداء

إليك

أنا

9 ـ أنانيَة الحب ..

مقولة اعتدنا سماعها ، فى كثير من الأعمال الدرامية ، التى زرعت هذا فى أعماقنا ، لسنوات وسنوات ، حتى بِتْنا نتصور أنها حقيقة لا تقبل الجدل ..

ففى منظور العديدين ، لابد للمحب أن يقاتل ويصارع ؛ ليحتفظ بحبيبه ، ويبقيه إلى جواره ، مهما كان الثمن ..

وفى سبيل ذلك ، قد يلجأ البعض إلى أسوأ وأحقر الوسائل ، بحجة الحب ..

وأنانية الحب ..

بعضهم قد يفسد حياة حبيبه ، فقط ليضمن بقاءه إلى جواره ..

يدمِّر مستقبله ..

يحاصره ..

يسعى لفشله ..

يُبْعِد الآخرين عنه ..

ينفرهم منه ..

المهم أن ينعزل الحبيب عن العالم كله ..

إلا عنه هو ..

وهو فى هذا يرى أن حبيبه ملك له ، ولا أحد فى الدنيا سواه ، يستحق الاحتفاظ به ، والفوز بحبه وحنانه ..

ووفقًا للقاعدة القديمة ، التى تقول : إن كل شىء مباح فى الحب والحرب ، فهو يفعل أشياء يندى لها الجبين ، فى سبيل الفوز بمن يحب ..

أشياء يخفيها ، لأنه يخجل من كشفها ..

وهو لا يشعر فى سبيل هذا بالندم ؛ لأنه يعتقد أن ما يفعله مشروع ..

والمؤسف أن هذه النوعية هى الغالبة ..

فى عالمنا العربى على الأقل ..

وقبل أن ترفض العبارة الأخيرة ، وتستنكرها ، وتغضب منها ، حاول أن تجيب معى سؤالاً واحدًا ..

كم خطيبًا يتعامل بوضوح وتلقائية مع خطيبته ؟!..

كم محبًا يصارح محبوبه بحقيقة نفسه ، وعيوبه ، ونواقصه ؟!..

من فى عالمنا العربى ، تعرف زوجها حق المعرفة ، قبل أن تتزوَّجه ؟!..

مَنْ مِن الرجال رأى وجه زوجته الحقيقى ، دون مستحضرات تجميل ، ومنعِّمات بشرة ، ووسائل (فرد) الشعر وتنعيمه ، قبل أن يتزوَّجها ؟!..

لو أجبت عن هذه الأسئلة ، فستتضح لك الحقيقة ..

الحقيقة المؤسفة ..

عالم الحب لدينا ، يعتمد كله على الخداع ..

وعلى الأنانية ...

كل محب يسعى للفوز بمحبوبه ، حتى ولو غش ، وخدع ، وتنكَّر ماديًا ومعنويًا ، فى هيئة وطباع ، تخالف هيئته وطباعه ..

والجميع يرى أن الغش والخداع ، فى هذا المضمار ، مقبول ومشروع ..

وهنا تكمن المشكلة ..

فبعد الزواج ، يرتطم المحبان بما لم يتوقعاه ، خلال مرحلة الخطبة والحب ..

يرتطمان بشخص آخر ، يختلف عمن عهدوه وعرفوه ..

وتكون الصدمة ..

ويكون الغضب ..

وانهيار الحب ..

وهو لن ينهار دفعة واحدة بالتأكيد ، ولكنه سينهار رويدًا ..

رويدًا ..

رويدًا ..

وقبل انهياره ، سيمر بمرحلة تتشقّق فيها المشاعر ، ويتباعد الحب ، ويصاب الحبيبان ، أو أحدهما ، بملل من العلاقة ..

وكثيرًا لا يشعر الطرف الآخر بما يحدث ..

أنانية الحب ، تجعله يتصوّر أن حبه خالد أبدى ، لا يمكن أن ينتهى أو ينهار ، مهما حدث ومهما واجه ..

وكما يحدث لكل ما يتشقق ، فإن الحب يضعف ، ويضعف ..

ثم فجأة .. ينهار ..

ولسنا نناقش هنا انهيار الحب وأسبابه ؛ فلهذا فصل كامل آخر ، ولكننا نناقش رد الفعل ، بعد هذا الانهيار ..

فهنا بالتحديد ، تتجلّى أنانية الحب ، بأقصى صورها ..

فالطرف الذى فوجئ بانهيار الحب ، الذى لم يشعر بمقدماته ، تصيبه فى المعتاد صدمة عنيفة فى البداية ، ثم سرعان ما تتحوّل الصدمة إلى انفصال ..

فإما أن يكون انفصالاً راقيًا متحضرًا ..

أو محبًا ..

أو أنانيًا ..

والانفصال الراقى المتحضّر ، يجعل الطرفين ينفصلان فى هدوء ، ودون أية مشكلات ، ويسعى كل منهما إلى إعطاء الآخر كافة حقوقه ..

والمؤسف أن هذا ما يحدث فى حالات نادرة ..

نادرة للغاية ..

ولكن لو أن المحبين زوجان تربطهما أطفال ، فإن ذلك الانفصال الراقى سيؤدى إلى استقرار الحالة النفسية للأطفال ، والحفاظ على براءتهم ، وتوازن مشاعرهم ، مع التنظيم السلمى للتعايش مع الأب والأم ، على نحو هادئ متفق عليه بطريقة سليمة ..

والانفصال المحب ، يجعل الطرف الأكثر حبًا ، والذى لم يتوقَّع هذا الانفصال ، يسعى لإتمامه فى هدوء ، ودون إيذاء الطرف الآخر أو جرحه ، بل وبيذل قُصارى جهده ؛ لإخفاء ألمه وعذابه فى أعماقه ؛ حتى يسمح لحبيبه بالرحيل فى حرية ..

والمحب يفعل هذا ؛ لأنه ما زال يعشق حبيبه ، ويتمنى سعادته وهناءه ، حتى ولو كان هذا مع غيره ..

أو ربما يؤمن بالحكمة التى تقول : لو أحببت شيئًا ، فدعه حرًا ، وأطلق سراحه دومًا ، فإما أن يعود عليك بإرادته ، أو أنه لم يكن ملكًا لك أبدًا ..

المهم أن حبه يمنعه من أن يصبح حجر عثرة ، فى طريق من يحب ...

وهذا هو الحب ..

الحب الحقيقى ..

وهو أيضًا حالة نادرة ..

على الرغم من جمالها وروعتها ورقتها ..

أما الانفصال الثالث ، فهو الانفصال الغالب ، والذى كثيرًا ما نراه فيما حولنا ..

الانفصال الأنانى ..

فالطرف الذى تم الانفصال عنه ، عاطفيًا ، يرفض هذا فى عنف ..

وغضب ..

وعدوانية ..

وشراسة ..

يرفض هذا ، ويبدأ فى مهاجمة الطرف الآخر ، بمنتهى الثورة والسخط ..

إنه لا يقيم وزنًا لسنوات الحب ، والعشق ، واللحظات الحلوة الجميلة ، والذكريات العطرة المشتركة ، ولا حتى ذكرى هدية ، أو لحظة تآزر ، أو همسة و ...

كل ما يذكره ، هو أن الطرف الآخر قد تركه ..

لفَظه ..

نبذه ..

أخرجه من حياته ..

وكل ما يسعى إليه هو الانتقام ..

والثـأر ..

والشماتة ..

فماذا تكون الأنانية ، لو أنها ليست كذلك ؟!...

وكل ما تفعله هذه الأنانية ، هو أنها تعذّب الطرفين ، فى آن واحد ..

الطرف الذى طلب الانفصال ، يتعذّب طول الوقت ؛ من جراء سعى الطرف المنفصل ، للنيل منـه طول الوقت ، والإساءة إليـه بلا توقُّف ..

وأحيانًا ما يكـون الأطفـال هم الضحيـة الأولـى لغضب الثـأر ، وشهوة الانتقام ..

بل غالبًا ما يكونون كذلك ..

ففى سبيل العناد والشماتة ، يسعى الطرف الأكثر غضبًا ؛ لإيذاء الطرف الآخر ، عن طريق الإساءة إلى أحب الناس لديه ..

أطفاله ..

إنه يحاول حرمانه منهـم ، أو تعذيبهم ؛ ليؤلمـه ، أو الإسـاءة إليهم ؛ ليسىء إليه ، دون أن يتوقَّف لحظة واحدة ، ليـدرك أنهم أيضًا أطفاله ..

وصغاره ..

وفلذة كبده ..

فشهوة الانتقام تعميه تمامًا ..

وربما لهذا أطلقوا عليها (شهوة) ..

فمثل أية شهوة ، تذهب بعقل صاحبها ، وتعمى عينيه ، وتصم أذنيه ، وتحوّله إلى كائن أحمق وحشى ، لا يملأ رأسه سوى أمر واحد ..

شهوته ..

ومثل كل شهوة أيضًا ، تكون عواقبها دومًا وخيمة ..

فشهوة الطعام ، تنتهى إلى أمراض لا حصر لها ، فى المعدة ، والكبد ، والكلى ، والقلب ، والمخ أيضًا فى بعض الأحيان ..

وشهوة الجنس تفسد الحياة ..

وشهوة الانتقام تدمّرها ..

وتدمّر المنتقم نفسه ..

فذات يوم ، سيستيقظ ليجد نفسه وقد أضاع حياته كلها ، فى سبيل ماضٍ ، لا يمكن أن يعود ..

أو أنه قد دمر أحب الناس إليه ، ودفعهم إلى كراهيته ..

وازدرائه ..

واحتقاره ..

ونبذه من حياتهم تمامًا ..

وربما لا يدرك هذا ، إلا عندما يضيع العمر ، وتتوالى النكبات ، ويضطر لمواجهتها وحيدًا ..

ضعيفًا ..

عاريًا ..

وكل هذا ؛ لأنه دمَّر كل من يمكن أن يقف إلى جواره ، أو يسانده ..

أو يحبه ..

وكل هذا ؛ لأنه لم يفهم الحب ، على النحو الصحيح ..

لم يفهم أنه من المستحيل أن يكون الحب الحقيقى أنانيًا ..

الحب الحقيقى حب كله عطاء ..

تفان ..

إيثار للمحب ..

وهذا يختلف تمامًا عن رغبة الامتلاك ..

ففى الحالتين ، يتصور المرء أنه يحب ..

فى الحالتين يرغب فى الحصول على من يحب ..

والاحتفاظ به ..

والقتال من أجل الاحتفاظ به ..

ولكن الحال يختلف بين الأمرين ، إذا ما أصبح الحب من طرف واحد ..

فرغبة الامتلاك تمنع صاحبها من رؤية أو إدراك سعادة الطرف الآخر ..

تمنعه من التفكير فى أى صالح ، باستثناء صالحه وحده ..

لذا ؛ فقتاله يتحوَّل ، من قتال للاحتفاظ بحبيبه ، إلى قتال حبيبه نفسه ..

ولن يهمه حينئذ إذا ما كان يعذِّب من أحب ..

ويحطمه ..

ويدمِّره ..

المهم أن يحتفظ به ..

هذا لأن الشعور الحقيقى ، الذى يملأ كيانه ، هو شعور التملُّك ، وليس الحب .. فمن يحب ، لا يمكن أن يعذِّب حبيبه ..

أبدًا ..

بل يفضِّل الموت ، على أن يمسّ شعرة واحدة منه ..

ويضحى بكل غال ورخيص لديه ، لو أن هذا يحقِّق لحبيبه لحظة واحدة من السعادة ..

فسعادة حبيبه هى سعادته الحقيقية ..

إلى جوارها يهون كل شىء ..

وأى شىء ..

حتى سعادته نفسها ..

هذا هو الحب الحقيقى ..

الحب الذى لا يعرف ذرة واحدة من الأنانية ..

أنانية المحب ..

لا أنانية الحب .

* * *

وزارة العقل

(قصة قصيرة)

فجأة ، انتبه حاكم الدولة إلى أن الشعب كله غاضب ، ثائر ، ساخط على الحكومة ، وعلى شهبندر التجار ، وكبير الوزراء ، وكل المسئولين (فيما عداه بالطبع) ، فاستدعى إليه كبير ياورانه ، وسأله فى صرامة :

- إيه اللى بيحصل فى البلد ؟! الناس ثايرة ليه ، بعد كل اللى عملته علشانهم ؟! هو الناس دى إيه ... مابتشكرش ؟!

انحنى كبير الياوران أمامه ، حتى كاد رأسه يرتطم بالأرض ، وأجابه دون أن يرفع عينيه إليه :

- القوانين يا حاكم الحكام .. القوانين .

لوَّح الحاكم بيده فى حدة ، هاتفًا :

- مالها القوانين ؟!

انخفض صوت كبير الياوران ، وكأنه يثبت المزيد من الولاء ، وهو يجيب :

- القوانين كتير ، ومعقدة ، ومالهاش حل .. الناس تعبت ، وزهقت ، وماحدش عارف يمشّى أموره ، غير بالرشوة أو بالتزوير .

بدا الحاكم ساخطًا ، وهو يقول :

ـ ليه بقى ؟! إحنا مش بنعمل القوانين دى عشان نريّحهم !!

تردَّد كبير الياوران بضع لحظات ، ثم عاد ينحنى ، قائلاً :

ـ الحقيقة جنابك إحنا بنعمل القوانين ، عشان تريحنا إحنا .. يعنى لما يطلع قانون ، وتحصل فيه مشكلة ، بنطلّع له قانون تانى ، بدل ما نحل المشكلة ، أو ندوّر على سببها .. وساعتها بتطلع لنا مشكلة تانية ، فنطلّع لها قانون تالت ، وهكذا .

بدا الحاكم مندهشًا ، وهو يقول :

ـ ما احنا بنعمل كده ؛ عشان نسد الثغرات .

أجابه كبير الياوران :

ـ فعلاً .. وكل ما نسد ثغرة ، تطلع لنا واحدة تانية ، فنسدها .. تطلع لنا تالتة .. وهكذا .

تساءل الحاكم فى قلق :

ـ وده كويس وللا وحش ؟!

هزّ كبير الياوران كتفيه ، وأجاب :

ـ الغرض كويس ، لكن النتيجة وحشة .

امتزج قلق الحاكم بدهشته ، وهو يسأله :

ـ إزاى بقى ؟!

شعر كبير الياوران ببعض الثقة ، وهو يعتدل قليلاً ، ويقول :

ـ العملية اتعقدت واتشبكت قوى جنابك ، وبقت جحيم على المواطن الشريف ، والمحتال بس هو اللى عارف يعيش ، واللى عارف يعدّى من كل حاجز نعمله ، ويلاقى لكل مشكلة ثغرة جديدة .

بدا الحاكم حائرًا ، وهو يتساءل :

ـ طب والحل ؟!

أجاب كبير الياوران ، فى خبث حذر :

ـ بتوع المعارضة بيقولوا : نبسّط القوانين ، ونشدّد العقوبة على المخالفين .

هتف الحاكم مستنكرًا :

ـ ده كلام برضه ؟! حنسمع كلام المعارضة ؟!

واصل كبير الياوران ، بنفس الأسلوب :

ـ بيقولوا : إن فى الحالة دى ، الشريف يرتاح ، والمحتال ياخد عقاب جامد .

قال الحاكم فى صرامة :

ـ طب ورجالتنا .. برضه نعمل فيهم كده لما يغلطوا ؟! إحنا مش قلنا فى الاجتماع اللى فات : المسامح كريم ، وفوتنالهم البلاوى اللى كانوا عاملينها .

تردّد كبير الياوران ، قبل أن يقول :

ـ ماهو بلاويهم مابتخلصش جنابك .

قال الحاكم فى حدة :

ـ ولمّا نحاسب رجالتنا ، يفضل لنا مين بقى ؟!

بدا الارتياح على وجه كبير الياوران ، وهو يقول :

ـ طبعًا طبعًا .. ثم مش معقول جنابك تنفذ كلام المعارضة ، لتاخد فى نفسها قلم ، وتفتكر نفسها بتفهم ، ومانعرفش نلمها بعد كده ..

وافقه الحاكم بإيماءة من رأسه ، وقال فى اهتمام :

ـ بس برضه ماقولتليش حل .

صمت كبير الياوران بضع لحظات مفكرًا ، ثم هتف فى حماس ، وهو يلوّح بيده :

ـ مبادرة .

تطلّع إليه الحاكم ، بنظرة حادة متسائلة ، فتابع بنفس الحماس :

ـ مبادرة من جنابك ، فى خطبة تاريخية ، تعلن فيها تطهير القوانين من التعقيدات ، وتنضيفها م الشوائب ، وتكسب بيها رضا وحب الشعب .

هتف الحاكم :

ـ طب ما أنا كسباتهم .. إنت ماتعرفش إن الشعب بيحبنى وبيموت فيا وللا إيه ؟! مابتسمعش الهتاف والتصفيق ، لما أكون ماشى ؟! مابتشفش اليفط ؟!

كان كبير الياوران يتمنى أن يخبره بالحقيقة ، وبأن الهتاف كله ينادى بسقوطه ، ولكن الزجاج المصفّح يحجب الأصوات عنه ، واللافتات كلها من صنع منتفعى الحزب ، وتقارير الأمن توهمه أن الناس يهتفون بحياته ، إلا أنه كان يُدرك أن حقيقة كهذه ، كفيلة بطرده من قصر الحكم شر طردة ، وعودته إلى الشارع الذى جاء منه ، وعمره لم يعد يكفى لرحلة تسلّق جديدة ؛ لذا فقد عاد ينحنى ، مثل الرقم ثمانية ، ويقول :

ـ دى حاجة ماتخفاش عن حد جنابك .. الشعب بيحبك وبيموت فى دباديبك أكيد ، وبيهتف بحياتك الغالية ليل نهار ، بس المبادرة دى حتزوّد الحب ده أكتر وأكتر ، وحتحط جنابك فى كتب التاريخ ... فى بلاد بره طبعًا .

انتعظ الحاكم لقوله ، وانتفخت أوداجه كالطاووس ، وتخيّل نفسه حاكمًا عالميًا ، فسار الخيلاء ، حتى بلغ عرشه ، وجلس عليه مرفوع الرأس ، ثم أشار بيده ، كما يفعل الملوك ، وقال فى عظمة :

ـ خلاص .. طلّع بيان بكده .

أخرج كبير الياوران ورقة وقلمًا من جيبه فى سرعة ، وسأل فى حماس :

ـ بإيه بالظبط جنابك ؟!

بدا الحاكم حائرًا بضع لحظات ، قبل أن تضىء عيناه فجأة ، ويقول :

ـ اسمع ... أنا مش حاعمل مبادرة ، أنا حاعمل وزارة .

غمغم كبير الياوران فى حذر :

وزارة إيه جنابك ؟!

أجابه الحاكم فى حماس :

ـ وزارة العقل .. حاتشئ وزارة جديدة ، أسميها وزارة العقل .. وزارة تدرس كل القوانين ، وتنضفها من كل التعقيدات .. وزارة تخفف عن الناس ، وتتعامل مع القوانين بالعقل ..

هتف كبير الياوران :

ـ الله أكبر !.. أهو كده جنابك ... حتى اسمها حلو .. وزارة العقل ... أوريجينال خالص .

انتعظ الحاكم أكثر ، وقال :

ـ يا للا .. طلّع البيان .. وماتنساش تبلّغ الجرايد والتليفزيون ..

وأسرع كبير الياوران إلى مبنى الإذاعة ، ليعلن بيان الحاكم ، ومبادرته الجديدة ..

وفى صباح اليوم التالى ، حملت ماتشيتات كل صحف الحكومة خبر المبادرة ، التى وصفوها بأنها تاريخية ، وبأن دول العالم كلها مبهورة بها ، وتتحدّث عنها ، وبأن الحاكم هو معجزة الخالق فى هذا العصر ، وفى كل العصور التى سبقته طبعًا ، والعصور القادمة بكل تأكيد ..

أما صحف المعارضة ، فقد شكّكت فى الأمر كله ، وفى أن عصر الحاكم يمكن أن يتسم ، ولو بلمحة من العقل ، فى ظل الفساد السائد ، فما بالك بوزارة كاملة ؟!!

ولكن الوزارة نشأت بالفعل .. وبأقصى سرعة ..

انتقى الحاكم بنفسه مبنى ضخمًا ، فى وسط العاصمة ، وعيّن

وزيرًا ، وحمل المبنى اسم الوزارة ، إلى جوار لافتات تهنئة الوزير الجديد ، الذى تم استدعاؤه من المصيف على عجل ، ووصل إلى المبنى فى موكب محدود ، حتى لا يثير غضب الحاكم ..

أما شيخ الجامع الكبير ، الذى تعينه الحكومة ، فقد خطب الجمعة ؛ ليقول للناس : إنها وزارة مباركة ، وإن من يرفضها سيدخل النار ، وله بئس الجحيم ، وإن الدين يأمرنا بطاعة أولياء الأمور ، والحاكم هو ولى أمرنا ، وولى نعمنا ، وخيرنا وبركتنا ، وباباتا ومامتنا ..

والتليفزيون موّل حملة لإقناع الناس بالفكرة ، من نقود الضرائب ، وعبر سلسلة إعلانات غير مدفوعة الأجر ، تتواصل بلا انقطاع ، ليل نهار ...

واستبشر الناس خيرًا بالوزارة الجديدة ، التى ستعيد العقل للحكومة ، وستعمل على تنقية القانون من الشوائب ، وإعادة صياغته ، على نحو يريح البلاد والعباد ، وشعروا أن اسمها يحمل مضمونها ، وأن الراحة قادمة ولاشك ، وأصبح هذا محور أحاديثهم ، فى المقاهى والنوادى والنواصى ، وفى ساعات الصفا والروقان ؛ مما ساعد على خفض معدلات الإنجاب ، فى هذه الفترة ..

وفى القصر الكبير ، جلس الحاكم منشكحًا ، سعيدًا بإنجازه العظيم ، يفكر فيما سيقوله عنه التاريخ ، وما ستصفه به الجغرافيا ، وصورته فى حساب المثلثات ، حتى دخل عليه كبير الياوران ، فسأله فى لهفة :

ـ أخبار الوزارة الجديدة إيه ؟!

أجابه كبير الياوران فى حذر :

ـ لسه ما اشتغلتش جنابك .

هتف فى دهشة مستنكرة :

ـ ليه بقى ؟!

أجابه الرجل ، وهو يزن كلماته جيدًا :

ـ الكادر الإدارى جنابك .

تساءل الحاكم فى ضجر :

ـ ماله راخر ؟!

أجابه كبير الياوران ، فى تحفُّظ واضح :

ـ أصل الوزارة دى جنابك ، هيا اللى حتعدّل كل القوانين فى البلد ، ولو مامسكهاش ناس مظبوطة ، حيعدلوا القوانين لحساب

ناس معينين ، ويمكن لحساب ناس ماتستحقش .

تراجع الحاكم فى عرشه ، وداعب ذقنه بأصابعه ، وهو يقول :

ـ معقولة برضه .

وهنا تابع كبير الياوران ، وصوته أكثر ثقة :

ـ وكمان جنابك ممكن اللى يمسكها مايكونش مخلص ، فيعدّل القوانين على مزاج المعارضة مثلاً .

انزعج الحاكم بشدة للفكرة ، وبدا الانزعاج واضحًا على ملامحه ، فواصل كبير الياوران فى حسم :

ـ عشان كده جنابك ، لازم نظبطها بالشعرة .

سأله الحاكم فى اهتمام :

ـ يبقى نختار حد كفاءة .

هزّ كبير الياوران رأسه فى رصانة ، وهو يقول :

ـ ولا مؤاخذة جنابك ، الكفاءة هنا مالهاش معنى .. الفلوس ممكن تغيّر النفوس ، وبتوع المعارضة لسانهم حلو ويمكن يلعبوها صح .

سأله الحاكم فى قلق :

ـ أمال نختار مين ؟

أجابه فى سرعة :

ـ حد نثق فيه طبعًا جنابك .

ثم تراجع ، مستدركًا فى حذر :

ـ عشان نبقى مطمنين .

درس الحاكم الأمر فى ذهنه بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ عندك حق .. كده أضمن .

وهكذا صدر قانون جديد ، بأن يقتصر التعيين فى الوظائف الإدارية ، للوزارة الجديدة ، على أهل الثقة دون سواهم ..

ومرة أخرى ، اطمأن الحاكم ، واستقرّ على عرشه ، ولكن كبير الياوران لم يتركه فى حاله ، فدخل عليه ذات صباح ، وهو قلق متوتر ، فسأله الحاكم :

ـ خير يا كبير الياوران ؟

هزّ الرجل رأسه ، وقال :

ـ وزارة العقل جنابك .

هتف الحاكم فى حنق :

ـ إحنا إيه .. ماعدش عندنا غيرها ؟

انكمش كبير الياوران ، وهو يقول :

ـ ما احنا عايزين نشغلّها ونخلص بقى جنابك .

صاح الحاكم فى غضب :

ـ طب مانشغلها .

أجابه منحنيًا فى توقير :

ـ لسه الجهاز الإدارى ما استقرّش جنابك .

كاد الحاكم يقفز من عرشه ، ويضربه بالشلوت ، وهو يقول فى غضب ثائر :

ـ ماخلاص .. قلنا نعيّن أهل الثقة ... هى سيرة ... عينوهم وخلّصونا .

سأله كبير الياوران :

ـ من أنهى فئة ؟!

خيّل للحاكم أنه لم يفهم العبارة جيدًا ، وهو يسأل :

ـ يعنى إيه ؟!

أجابه موضّحًا :

ـ يعنى ولاد الأكابر ، ولّلا ولاد البلد ؟!

سأله الحاكم ، وقد أثار السؤال اهتمامه :

ـ إيه الفرق ؟!

ابتسم كبير الياوران ، ابتسامة توحى بالحكمة ، وهو يقول :

ـ فرق كبير قوى جنابك .. ولاد الأكابر عينهم مليانة ومبسوطين ، إنما ولاد البلد عينهم فارغة ، مايملاهاش غير التراب .

سأله الحاكم فى قلق :

ـ وهو إحنا ماخدناش توكيل التراب ؟

أجابه كبير الياوران فى سرعة :

ـ طبعًا أخدناه .. وهو حد يقدر ياخده مننا جنابك ؟!

قال الحاكم فى حدة :

ـ أمال إيه بقى ؟! ما إحنا قلنا حنختار أهل الثقة .

أجابه كبير الياوران :

ـ لازم برضه نبعدهم عن الإغراء جنابك .

تنهَّد الحاكم ، وعاد يداعب ذقنه ، قائلاً :

ـ عندك حق برضه .

انحنى كبير الياوران فى شدة ، فارتطم رأسه بالأرض فعليًا ، وهو يقول :

ـ أوامر جنابك .

هزَّ الحاكم رأسه ، وهو يفكِّر فى الأمر ، ثم قال :

ـ خلاص .. نطلَّع قانون جديد ، إن اللى يشتغل فى الوزارة الجديدة ، لازم يكون من ولاد الأكابر .

هتف كبير الياوران :

ـ يا سلام عالحكمة جنابك .. فورًا يطلع القانون .

مال الحاكم إلى الأمام ، يسأله فى حدة :

ـ كده يبقى سدينا الثغرات ؟!

رفع كبير الياوران يده ، مجيبًا :

ـ أكيد جنابك .. أكيد .

وأسرع كبير الياوران لإصدار القانون الجديد ، وتراجع الحاكم فى عرشه ، وحاول الاسترخاء عليه ، لولا أن دخل عليه كبير الياوران مرة أخرى ، وتردَّد طويلاً ، قبل أن يقول :

ـ الكادر جنابك .

هتف الحاكم فى غضب :

ـ يادى الوزارة الجديدة ، والكادر بتاعها!

ارتبك كبير الياوران ، وهو يقول :

ـ ما هو لسه فيه ثغرة جنابك .

قال الحاكم فى سخط :

ـ إيه تانى ؟!

أجابه الرجل :

ـ أصل لما بعتنا القانون الجديد لشئون الموظفين جنابك ، بعتوا يسألونا ، ولاد أكابر زمان ، وللا أكابر دلوقتى ؟!

قال الحاكم فى ملل ، ما بعده ملل :

ـ وده إيه ده راخر ؟!

التقط كبير الياوران نفسًا عميقًا ، وأجاب :

ـ ولاد أكابر زمان كانوا ولاد ناس ، وأكابر أبًا عن جد ، وعندهم حسب ونسب ، وأصل وفصل ، وولاد أكابر دلوقتى عندهم فلوس .

اكتفى بالقول ، فسأله الحاكم :

ـ وإيه كمان ؟!

هزَّ رأسه ، مجيبًا :

ـ وبس يامولاى .

صاح به فى حدة :

ـ يعنى إيه بس ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ يعنى عندهم فلوس وبس جنابك .. مالهومش لا أصل ولا فصل ، بس مريشين عالآخر ، وغرقانين فى عز جنابك ..

سأله الحاكم :

ـ شبعانين يعنى ؟! زى حالاتنا كده ؟!

تردَّد كبير الياوران لحظة ، ثم هزَّ كتفيه ، قائلاً فى حذر :

ـ يعنى .

مطَّ الحاكم شفتيه ، وقال :

ـ والأصل والفصل حيعملوا إيه ؟! اللى معاه فلوس ، عمره مايفكَّر يسرق .

كان كبير الياوران يخالفه الرأى تمامًا ، وخبرته تشير إلى العكس ، إلا أنه لم يجرؤ على معارضته ، ولم يشأ أن يفتح على نفسه وأحبابه طاقة جهنم ، فهز رأسه ، مغمغمًا :

ـ زى ماتشوف جنابك .

تراجع الحاكم فى مقعده أكثر ، وقال :

ـ يبقى نطلَّع قانون جديد .

أخرج كبير الياوران الورقة والقلم ، وهو يقول :

ـ أمرك سيادتك .

نهض الحاكم ، وأشار بيده ، كما كان يفعل ملوك زمان العظماء ، وقال فى حزم :

ـ طلَّع حالاً قانون ، إن بتوع الكادر الإدارى ، فى الوزارة الجديدة ، يكونوا من ولاد أكابر دلوقتى .

قال كبير الياوران فى ارتياح :

ـ كده نبقى سدينا كل الثغرات جنابك .

زفر الحاكم ، قائلاً :

ـ ياريت !

ولكنه ظلّ حذراً مترقّبًا ، واتضح أنه على حق ، فبعد يوم واحد ، جاءه كبير الياوران ، يقول فى توتر :

ـ كارثة جنابك .. كارثة !

قفز الحاكم من عرشه ، هاتفًا :

ـ خير ؟!

أجابه كبير الياوران فى شحوب :

ـ رفعوا قضية عالوزارة .

هتف الحاكم مستنكرًا ، وغاضبًا :

ـ الوزارة الجديدة ؟! هى لسه اشتغلت ؟!

واصل كبير الياوران فى ارتباك :

ـ ولاد البلد رافعين قضية ، قدام قاضى القضاة ، فى المحكمة الكبيرة ، بيقولوا إن قوانين التعيين ، فى الوزارة الجديدة ، مش ديمقراطية .

صاح الحاكم فى غضب :

ـ ديمقراطية ؟! ولاد البلد بيتكلموا عن الديمقراطية ؟! هما لولايا أنا ، كانوا شافوا ديمقراطية ، ولا حتى سمعوا عنها ؟! آدى آخرتها .. خير تعمل ، شر تلقى .. سكتناله دخل بحماره .

قال كبير الياوران ، فى ارتباك أكثر :

ـ المشكلة إن قاضى القضاة قال : إن عندهم حق .. وإن القانون مابيقولش كده .

احتقن وجه الحاكم ، من شدة الغضب ، وهو يقول :

ـ وبعدين بقى .. أنا مش قلتلك إن موضوع قاضى القضاة ، والمحكمة الكبيرة ده ، حيجيب لنا وش ووجع دماغ .. إحنا نطلّع قانون يلغيهم ، ونريّح مخنا .

تنحنح كبير الياوران ، وقال :

ـ ماينفعش جنابك .. الدول الكبيرة تقول علينا إيه ؟!

أجابه فى حدة :

ـ يقولوا اللى يقولوه .

تنحنح مرة أخرى ، وقال فى حذر :

ـ طب والمعونات ، والعلاوات ، والعمولات .

تراجع الحاكم ، مغمغمًا :

ـ آه صحيح .. ابقى فكر لنا فى طريقة ، نغيّر بيها القانون ، اللى بيقرفنا بيه قاضى القضاة ده ، وللا إقلب لنا المحكمة الكبيرة بوتيكات .. ودلوقتى شوف لنا حل فى المشكلة اللى إحنا فيها دى .

أشار كبير الياوران بسبّابته ، وقال :

ـ قانون .

هتف الحاكم محنقًا :

ـ تانى ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ قانون يقول : إن الوزارة الجديدة وزارة سيادة ، وإن جنابك لك الحق تعيّن فيها اللى يعجبك ... فى الحالة دى ماحدش يقدر يعترض ، وكل واحد يحط لسانه فى بقه وينكتم .

بدت الفكرة جميلة ، وراقت كثيرًا للحاكم ، ولكنه تساءل فى اهتمام :

ـ وولاد البلد ؟! ماهم حيفضلوا غضبانين .

هزّ كبير الياوران رأسه ، مجيبًا :

ـ نطلّع قانون إن خمسة فى المية من المعينين ، فى الوزارة الجديدة ، يكونوا من ولاد البلد ، وجنابك تطن كده فى خطبة تاريخية ، وأهم مش حيضروا .. نبقى نحطهم فراشين وللا سفرجية .

تنهّد الحاكم ، وقال :

ـ والله فكرة .. طلّع القانون ، وأنا حامضيه .

تردّد كبير الياوران بضع لحظات ، وتململ فى وقفته ، فاعتدل الحاكم ، يسأله فى غضب :

ـ فيه إيه تانى ؟!

سأله الرجل ، وكأنما ينتظر السؤال :

ـ قواعد تعيينهم تبقى إيه ؟!

شعر الحاكم أن الوزارة الجديدة قد جلبت له وجع الرأس ، فقال فى حدة غاضبة :

ـ قواعد إيه ياجدع إنت ؟! حط أى قواعد .. مش بتقول فراشين وسفرجية .

أجابه كبير الياوران منكمشًا :

ـ ماهم فى المكان برضه جنابك ، وممكن يسربوا القوانين ، وللا يغيروا حاجة كده وللا كده .

لوّح الحاكم بيده ، وقال فى غضب :

ـ خلاص .. طلّع قانون إنه يبقوا برضو من أهل الثقة .

أومأ كبير الياوران برأسه ، وتراجع إلى الخلف ، قائلاً :

ـ أوامر جنابك .

وقبل أن يغادر ، استوقفه الحاكم ، وقال فى صرامة :

ـ المهم الثغرات .. ماتسيبوش ثغرات .

أجابه كبير الياوران ، بمنتهى الخنوع :

ـ اطمئن جنابك .

وصدر القانون الجديد ..

ومضت الأيام ، وصحف الحكومة ، التى لا يقرأ الحاكم سواها ، تشيد بالوزارة الجديدة ، وبالمشروع العظيم ، وبالحاكم العبقرى ، وتعيد وتزيد خطابه التاريخى ، الذى ألقاه على الشعب بهذه المناسبة الكبيرة ، وتؤكّد أن العالم كله اهتم بالخطاب ، وأن رئيس أكبر دولة أشاد به ، على الرغم من تأكيد صحف المعارضة أن ذلك

الرئيس الكبير لم يسمع عن الحاكم من الأساس ..

أما تقارير الأمن ، فجاءت تؤكّد أن كل شىء على ما يرام ، والوزارة الجديدة تحظى بحب وتأييد الشعب ، الذى يهتف بحياة الحاكم ليل نهار ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان ..

حتى المظاهرات ، التى ملأت البلاد ، من أقصاها إلى أقصاها ، لم يأت ذكرها فى نشرات الأخبار ، ولم تشر إليها تقارير الأمن ، أو ينشر عنها سطر واحد ، فى صحف الحكومة ...

ومع سعادة الحاكم ، وزهوه بمشروعه العظيم ، خطرت على باله فكرة عجيبة ، لم تحدث منذ أيام أجداد أجداده ..

أن يتنكّر مع كبير الياوران ، ويذهبا لتفقّد الأحوال على الطبيعة ، فى الوزارة الجديدة ..

وزارة العقل ..

وبسرعة ، أحضر كبير الياوران زيين ، من أزياء ولاد البلد ، ارتدى الحاكم أفخمهما ، وارتدى هو الآخر ، وخرجا متنكرين ، فى الصباح الباكر ، إلى مبنى الوزارة ، وكلّهما شوق ؛ لرؤية نتائج التجربة الجديدة ..

وهناك ، شعر الحاكم بالانبهار ، من فخامة المبنى ، وضخامته ،

واللافتة الكبيرة عليه ، ولفت انتباهه أن لافتة الترحيب بالوزير ما زالت هناك ، متألقة زاهية ، تحمل الاسم بحروف كبيرة ، فمال على أذن كبير الياوران ، هامسًا :

ـ ابقى فكرنى نقيل الجدع ده ، أول ما نرجع .

أومأ كبير الياوران برأسه موافقًا ، وهمس بدوره :

ـ أنا مجهز البديل ، من قبل ما يتعين ده جنابك .

ابتسم الحاكم فى ارتياح ، مغمغمًا :

ـ عظيم .. عظيم .

لاحظ ، وهو ينطق كلمته الأخيرة ، طابور طويل من الناس ، من أولاد البلد ، يقف عند الوزارة ، ويمتدّ لعشرات الأمتار ، فهمس فى سعادة كبيرة :

ـ شوف الهمة .. الوزارة مابقالهاش ست سبع تشهر ، وشغالة نار .

غمغم كبير الياوران :

ـ البركة فى توجيهات جنابك .

سارا إلى جوار الطابور ، حتى يبلغا بدايته ، وعندما وصلا

إلى بوّابة الوزارة ، ارتطم بهما واحد من أولاد البلد ، وهو يخرج ثائرًا ، ساخطًا ، غاضبًا ، فاستوقفه الحاكم ، متسائلاً :

ـ مالك .. فيه إيه ؟! الوزارة شغلها غلط ؟!

هتف الرجل فى حدة :

ـ وهيا لسه اشتغلت ؟!

اتسعت عينا الحاكم ، وهو يسأله :

ـ وما اشتغلتش ليه ؟!

صاح الرجل ، وعيناه محمرتان ، من شدة الانفعال :

ـ الكادر الإدارى يا سيدى .. عشان يعينونا ، عايزين عشرين طلب ، وخمسين استمارة ، وميت شهادة دراسية وإدارية ، وشروط ، وتعقيدات .. بناقصها .. ده شغل مجانين يابا !

ولم ينطق أحدهما بحرف واحد .

تمت بحمد الله

المـوت حيًّا

(قصة قصيرة)

حبيبتى ..

اسمحى لى أن أستخدم لقب حبيبتى لآخر مرة ، وأنا أخط إليك هذا الخطاب ، الذى ربما لن أرسله إليك أبدًا .. اسمحى لى أن أخاطبك ، ولآخر مرة ، باعتبارك الزهرة ، التى تفتّحت فى قلبى ، وأينعت فى كيانى ، ومنحتنى أجمل وأعظم وأمتع سنوات عمرى ..

لست أدرى ، حتى وأنا أجلس أمام أوراقى وأقلامى ، لماذا أكتب لك خطابى هذا ، بعد أن لفظ حبك لى أنفاسه الأخيرة فى مسامعى ، ولا لماذا لم أستسلم للقدر ، الذى حرمنى منك ، ومن حبك ، ومن لحظات رائعة ، كنت أستمتع فيها بقربك ، ولكن ربما لا أكتبه لك ، ولكن لنفسى ..

نفسى التى ألومها ألف مرة ، فى كل لحظة ؛ لأنها حتمًا السبب فى تحوّل مشاعرك عنى ، وانصرافها إلى غيرى ...

فعندما غزل الحب خيوط عشقك فى قلبى ، شعرت به ينبض ، لأوّل مرة فى حياتى ..

ينبض نبضًا حقيقيًا ، له نغمات أعذب موسيقى سرت فى وجدانى ، منذ تفتّحت عيناى على الدنيا ، وأدركت لحظتها أننى

لم أحب قط قبل أن ألتقيك ، ولم أعشق أبدًا ، قبل أن تقع عيناى على وجهك الهادئ الصبوح ، وابتسامتك المشرقة ، وبساطتك الرائعة ، التى خلبت لبى منذ اللحظة الأولى ..

وكم كانت فرحتى وسعادتى ، عندما أدركت أنك تبادلتنى حبًا بحب ..

بل وكنت أكثر منى حبًا ، وأطهر نفسًا ، وأغزر مشاعرًا ..

والأهم ، أنك كنت الأكثر عطاءً وتفانيًا ..

وهنا تكمن المشكلة ..

فطوال حياتى ، اعتدت أن أعطى أكثر مما آخذ ، ولكن معك ، انقلب الحال واختلف ، ولست أدرى حتى كيف ...

فجأة ، وجدت نفسى أنهل منك أكثر مما أعطيك ، وظللت أنت تعطين دون حساب ، ودون انتظار أدنى مقابل ، مما أصابنى بطمع لم آلفه ، ورحت آخذ منك أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وظللت تعطين .. وتعطين .. وتعطين ..

ومع الوقت ، اعتدت عطاءك ، واعتدت طمعى وشراهتى ..

وحتمًا جاءت لحظة الانكسار ..

ورويدًا رويدًا ، رحت تبتعدين عنى ..

كنت ما زلت تعطين بلا تقطير ..

وكنت أنهل بلا حساب ..

ولكن مشاعرك لم تعد صافية بسيطة كما كانت ..

عطاؤك لم يختلف ، ولكن مشاعرك تباعدت ..

وتباعدت ..

وتباعدت ..

وعندما انتبهت إلى هذا ، كان الأوان قد فات ...

عندما انتبهت ، كان قلبك قد ملّ أنانيتى ، وإسرافى فى الأخذ ، وكان عقلك قد أرهقته متاعبى ومشاكلى المتصلة ، وكان حبى قد تسلَّل خارج قلبك ، حتى لم تعد نفسك تحتمله ، ولم يعد كيانك يرغبه ..

والعجيب أننى ، عندما بدأ كل هذا ، كنت ألاحظ إعجابك الصامت بصديق مشترك ، وكنت أشاركك الإعجاب به ، ولكن

أنانيتى ، وثقتى المفرطة فى حبك لى ، منعانى من الانتباه إلى ما يمكن أن يولّده هذا ، أو يفعله بقلب مرهف رقيق كقلبك ..

حتى جاء ما لا يمكن الإفلات منه ..

فى لحظة ، أراد القدر أن يحسم الأمور ، فتوقفنا عن اللقاء طويلاً ، لظروف خارجة عن إرادتى أنا على الأقل ..

وابتعدنا ..

ابتعدنا طويلاً ..

وكثيرًا ..

وربما كنت أتصوّر أيامها أن حبنا حقيقة ثابتة راسخة ، وأنه حتى النوائب والزمن ، لن يمكنهما النيل منه ..

ولكننى كنت واهمًا ..

إننا لم نبتعد بجسدينا فقط ..

ابتعدنا حتى بمشاعرنا ..

وهنا ، ومع قربه اليومى منك ، تحقَّق المثل القديم ..

القريب من العين ، قريب من القلب ..

والبعيد عن العين ، بعيد عن القلب ..

كنت أنا بعيدًا ، وكان هو قريبًا ، وكان قلبك ما زال ينبض ..

ويحب ..

ويهفو ..

ولكننى ، وبكل أسف الدنيا ، لم أعد أحظى بلمحة منه ..

كل ما بقى لديك ، هو إحساسى بالوفاء ، واقتناع بالولاء ، وصراع فى الأعماق ، بين قلب يحب ، وعقل يقاوم .. وهنا شعرت ..

وخفت ..

بل ارتعبت ..

وفى لحظة ما ، أقنعنى عقلى بأنه من الضرورى أن نفترق ..

من الضرورى أن أتركك لقلبك ..

لحبك ..

لشبابك ..

لعصرك الذهبى الجميل ..

ولكن قلبى كان يقاوم ..

ويقاوم ..

ويقاوم ..

فرق كبير جدًا بين ما يقنع العقل ، وما يرضى القلب ..

فالعقل يدرك أن الحب ليس أبدًا أنانيًا ..

الحب هو الدافع الوحيد فى الدنيا ، الذى يجعلك ترضين بسعادة من تحبين ، وتسعين إليها ، حتى لو كان فيها حزنك أنت ..

وألمك ..

وعذابك ..

العقل يدرك هذا ..

ولكن القلب يتمزّق لمعرفته ..

وبعقلى ، عرضت عليك أن نفترق ، وأن تمضى فى حياتك ، وتصنعى المستقبل ، الذى يضمن لك السعادة والهناء ..

وبقلبى ، كنت أتمنى ألا يحدث هذا ..

أبدًا ..

وفى البداية ، رفضت أنت العرض بشدة ..

رفضته ، ليس من منطق الحب ، ولكن من منطق الواجب ..

وفى هذا أيضًا ، فرق كبير جدًا ، بين ما يقبله العقل ، وما يرضاه القلب ..

عقلك كان يرفض التخلّى عنى ، بعد سنوات الحب الطويلة ..

وقلبك كان يتمنى هذا ..

ويرغبه ..

ويريده ..

بشدة ..

وكلما كنت أشعر بتباعدك ، كنت أكرّر عرضى ..

وتكررين رفضك ..

وكان هذا يجعلنا نتباعد أكثر ..

ويجعل الأسوار بيننا ترتفع ..

وترتفع ..

وترتفع ..

وعندما أفقت ذات يـوم ، وأدركت أن الأسوار قد بلغت ذروة ارتفاعنا ، أصررت أن نلتقى ..

ونتحدّث ..

كان ذلك اليوم ، الذى التقينا فيه ، يوافق الذكرى العاشرة ليوم

حبنا ، ورأيت ، ربما لأننى ما زلت أحتفظ ببقايا رومانسية ، أنه أفضل يوم لحسم الأمور ..

وعندما التقينا ، كنت بطبيعتك الطاهرة ، تحاولين منحى شيئًا من السعادة ..

وهذا ما أحببته فيك دومًا ..

وعشقته ..

واحترمته ..

كنت دومًا تبذلين كل الجهد ؛ لإسعاد من حولك ، على الرغم مما يجشّمك هذا من تعب ، ومشقة ، وتضحية ..

وكنت مصرًا على المواجهة ..

وبعد احتفال بسيط ، قدّمت لك فيه آخر هدية ، أو هدية الوداع كما أسميتها فى أعماقى ، واجهتك ..

أخبرتك بكل ما أشعر أنه يدور فى أعماقك ..

شرحت لك كيف أن كل ما أبتغيه هو سعادتك ..

وهناؤك ..

ومستقبلك ..

أبلغتك أنك لست مدينة لى بأى شىء ..

حتى المشاعر ..

وكنت مترددة ..

خائفة ..

لذا فقد ساعدتك بقدر إمكانى ، حتى تتجاوزى هذا ، وتصارحينى بما يعتمل فى نفسك ..

ويبدو أننى نجحت ..

لأنك بحت بما فى داخلك ..

أخبرتنى أنك تشعرين بحب آخر ، ينمو فى أعماقك ..

حب تجاه ذلك الصديق ..

كان هذا ، على الرغم من توقعى إياه ، أشبه بخنجر ، انغرس فى أعمق أعماق قلبى ، بمنتهى منتهى القسوة ..

وبينما قلبى ينزف ألمًا ، حاولت جاهدًا أن أخفِّف عنك الأمر ..

كان عقلى يتحدَّث إليك بهدوء وروية ، ورصانة وخفوت ، وقلبى يصرخ وينتحب ، ويبكى بدموع من حمم ملتهبة ، تسرى فى عروقى كألف ألف نار ، لتشعل كل ذرة من كيانى ، وتدمى كل لمحة من وجودى ..

وبعد اللقاء والمواجهة ، كان من المحتَّم أن نفترق ..

فافترقنا ..

افترقنا ، وكيانى ممزَّق ، بين عقل يدرك أن هذا حقك ، ولا أحد فى الكون يمكنه منازعتك فيه ، وأن شبابك وجمالك يفتحان أمامك مستقبلاً مشرقًا ، لا ينبغى لى ، أو لغيرى ، اعتراض طريقه ، ولا أن يحرم الدنيا من زوجة رائعة ، وأم أكثر روعة ، ومن قلب متفتِّح ، ونفس طاهرة ، وحنان يكفى لإسعاد الدنيا كلها ، ولا من مشاعر نادرة ، تهفو كل خلية فى الكون إلى لمحة منها ، وقلب يدعونى فى إلحاح إلى القتال ؛ للاحتفاظ بك ..

وسرعان ما حسم عقلى الصراع ..

افترقنا ، وقد عاهدتُ نفسى على أن أبتعد تمامًا عن طريقك ، حتى تكونى حرة فى حياتك ، وحبك ، واختياراتك ، وأن أقتل لواذع قلبى ، وأكتم نحيب حبى ، وأذبح آلام وجدانى ، وكل هذا فقط ، لتسعدى ...

حتى لو كان هذا مع غيرى ..

صحيح أنه من المستحيل نسيان حب عشر سنوات ، حتى فى عشرة أشهر ، ولكن الصراع انتهى ..

انتهى الصراع بين عقلى وقلبى ..

انتهى ؛ لأنه لم يعد لدىَّ قلب ..

فعندما غادرت ، انتزعته معك ، ولم يعد ينبض كما عهدته ..

لم يعد ينبض ؛ لأنه كان ينبض فقط بحبك ، ويخفق فقط من أجلك ..

وبعدك ، لا يحق له أن ينبض ، ولا يمكنه أن يخفق ..

كل ما بقى لى هو عذاب الندم ؛ لأننى حرمتك من حريتك لأعوام ، لا يدرى سواك ، والله (سبحانه وتعالى) عددها ..

الندم على سنوات عمرك الذهبية ، التى قتلتها بأنانيتى ، ولهفتى ، ورغبتى العمياء فى قربك منى ..

سنوات كنت فيها إلى جانبى ، بدافع الواجب ، لا الحب ..

وما أعظمك ..

ما أروع عطاءك الماسى العظيم ..

من أجله ، جلست أكتب ما أكتبه ..

ولكن ، هل يمكن أن أرسل إليك هذا الخطاب ؟!..

لا أظن ..

لو أرسلته ، ستتصوَّرين أننى أحاول استمالتك مرة أخرى ..

وأقسم إننى لم ولن أحاول هذا ..

لقد كانت السنوات السابقة عظيمة ؛ لأننى تصوَّرت أن كل منا لا يعشق سوى الآخر ، ولا يمكن أن يعشق سوى الآخر ..

إن قلبى ملكك ، وقلبك ملكى ..

وإلى الأبد ..

أما الآن فأنا أدرك أنه لم يعد لى ..

لن أرسل الخطاب ؛ لأننى لن أجرؤ ..

ولن أقدر ..

انسينى إذن يا حبيبة كل ذرة فى كيانى ..

امضى فى حياتك ، ولا تلتفتى خلفك لحظة واحدة ...

وسامحينى ، واغفرى لى ...

اغفرى لى سنوات أضعتها من عمرك ..

سامحينى على مشاعر سلبتك إياها ، دون وجه حق ..

اغفرى لى وسامحينى ، فما تصوَّرت أبدًا أننا سنفترق يومًا ..

ولا تنشغلى ولو لوهلة بمشاعرى أو حياتى ..

فقد ذابت مشاعرى ..

ولم تعد لى حياة ..

كنت حياتى ، وحبى ، وكيانى ، ووجودى ..

وبعدك صرت مجرَّد كيان بشرى فارغ ..

جثة هامدة ، تمشى على قدمين ..

مجرَّد بشرى ، حكمت عليه الدنيا بعقوبة الحياة ، وينتظر فى شوق ولهفة ، لحظة الإفراج ..

ولحظة الرحيل ..

أصبحت حيًا ، فى عيون الآخرين ، وميتًا ، فى واقعى الفعلى ..

وما أشق الموت ..

حيًا .

أنـا .

* * *

1 ـ الزهـــرة ..

كان يومًا رائعًا بالتأكيد ، فالشمس مشرقة ، والأشجار وارقة ، والطيور الصغيرة الجميلة تتنقّل بين أغصانها مرحة مغرّدة ، والنسيم جميل عليل ..

وفى سعادة جمّة ، استنشقت هى الهواء النقى فى استمتاع ، قبل أن تلتفت إليه ، هاتفة فى مرح :

ـ أسرع يا (مدحت) .. نريد أن نستمتع باليوم من أوّله .

ابتسم (مدحت) فى هدوء كعادته ، وحمل حقيبة الشطائر الصغيرة ، وهو يتجه بها نحو السيارة ، قائلاً :

ـ اليوم ما زال فى بدايته .

راقت لها ثيابه البسيطة ، التى تتناسب كثيرًا مع ألوان الربيع المحيطة بهما ، وقالت فى حب :

ـ اليوم كله لا يكفى للتنزه معك .

مرة أخرى ، ابتسم تلك الابتسامة العذبة الهادئة ، وهو يتحسّس خدّها الناعم برفق ، هامسًا فى حب :

ـ ولا الدهر كله يكفى معك .. إننى لا أشبع منك أبدًا .

قبلت يده ، وارتفع حاجباها فى تأثُّر ، وهى تتطلَّع إليه ، وراودتها فكرة لم يكن من الممكن تنفيذها فى الشارع ، فطردتها من رأسها فى سرعة ، وأخفتها بضحكة ، وهى تقول :

ـ هيا بنا إذن .

أخرج من جيبه مفاتيح السيارة ، ولوّح بها ، قائلاً بابتسامة :

ـ من سيقود هذه المرة ؟!

هزّت كتفيها فى دلال ، قائلة :

ـ أنت الرجل ..

اتسعت ابتسامته فى حب وحنان ، جعلها تهتف فى أعماقها :

ـ يا إلهى .. كم أحبه !

كان أحب إنسان إليها ، فى الوجود كله ..

وأوّل حب ، فى حياتها كلها ..

وكم تمنّت فى تلك اللحظة أن تلقى نفسها بين ذراعيه ..

كم تشتاق لحبه .

وحنانه ..

ورقته ..

ورجولته ..

بدا وكأنه يقرأ أفكارها ، عندما مال على أذنها ، هامسًا :

ـ أحبك .

اختلج قلبها فى عنف ، وكادت تصرخ فى وسط الشارع بأنها تحبه ..

تحب كل ذرة منه ..

كل لمحة ..

كل همسة ..

ولكنه قالها ، واتجه نحو السيارة ..

ووقفت هى تتابعه فى سعادة ، قبل أن تتجه بدورها نحو السيارة ، وبينما تفتح بابها ، لاحظت تلك السيارة القديمة ، التى تتجه نحوهما فى سرعة ..

ولمحت فوهة المدفع الآلى ، التى تبرز من نافذتها الخلفية ..

وبكل ما اعتمل فى نفسها ، صرخت ..

ـ احترس يا مدحت !

ودوت الرصاصات ..

بمنتهى العنف ..

وانتفض جسدها كله ...

انتفض ، وهى تهب من نومها ، مطلقة صرخة حادة ..

ولنصف دقيقة تقريبًا ، راحت تتلفَّت حولها فى توتر شديد ، وأنفاسها تتلاحق فى شدة ، كما لو أنها كانت تعدو بكل قوتها فى نومها ..

ثم لم تلبث أن دفنت وجهها فى كفيها ، مغمغمة فى أسى :

ـ رباه !.. هذا الكابوس يتكرَّر ويتكرَّر .. لم أعد أحتمله .

بقيت فى فراشها عدة دقائق ، محاولة السيطرة على أعصابها ، واستعادة تماسكها ، ولكن فجأة ، انطلق رنين الهاتف المجاور للفراش ، فانتفضت مرة أخرى فى عنف ، ووثبت يدها تلتقط سمَّاعته ، وهى تقول فى حدة :

ـ من ؟!

سمعت صديقتها (رنا) ، تقول فى دهشة :

ـ ماذا بك ؟!.. هل أجريت الاتصال فى وقت غير مناسب ؟!

اعتدلت مجيبة :

ـ كلا .. لقد استيقظت للتو فقط .. أهلاً بك .

صمتت (رنا) لحظة ، ثم قالت :

ـ هل نسيت أننا اتفقنا على الذهاب للمبنى التجارى اليوم ؟!

نهضت من فراشها ، وهى تجيب :

ـ كلا .. لم أنس .. امنحينى نصف ساعة فحسب ، وسألحق بك هناك .

أجابتها (رنا) :

ـ لا بأس .. أنا هناك بالفعل .. سأنتظرك .

أنهت المحادثة ، ونهضت تستعد للخروج ..

وعندما ارتدت ملابسها ، امتدَّت يدها إلى علبة مخملية صغيرة ، وفتحتها فى اهتمام ، وتطلَّعت لحظة إلى حلية صدر ، على شكل زهرة ، ذات نصوص قرمزية اللون ، ثم مدَّت أصابعها ، والتقطتها فى رفق ، وثبتتها على صدرها ..

وبينما تفعل ، بدأ عقلها ينطلق نحو ذكريات بعيدة ..

بعيدة نسبيًا ..

ولكنها هزَّت رأسها فى عنف ، قائلة فى حدة :

ـ كلا ..

ودون أن تترك لعقلها فرصة الانغماس فى الذكريات مرة أخرى ، اندفعت تغادر منزلها ..

بمنتهى السرعة ..

* * *

« ياسمين .. »

ارتسمت ابتسامة عذبة هادئة ، على شفتى (ياسمين) ، وهى تلتفت إلى صديقتها (رنا) ، التى ظهرت عند مدخل ذلك المبنى التجارى الكبير ، ولوَّحت لها بيدها ، فأسرعت (رنا) نحوها ، وهى تهتف بصخب كعادتها :

ـ أعلم أننى قد تأخَّرت عن موعدنا ، ولكننى لست مستعدة لسماع كلمة عتاب واحدة .

ضحكت (ياسمين) فى رقة ، قائلة :

ـ ومن المستعد لقولها ؟!

ثم غمزت بعينها ، مستطردة فى مرح هادئ :

ـ إنها لا تجدى أبدًا .

أطلقت (رنا) ضحكة عالية ، وهى تلف مع صديقتها إلى المبنى التجارى ، قائلة فى مرح :

ـ جميل أنه هناك أمر نتفق عليه .

كانت أول زيارة لهما ، إلى ذلك المبنى الفاخر ، الذى تتحدَّث عنه العاصمة المصرية كلها ، ولقد بدا فى حلة مبهرة ، حتى إن (رنا) هتفت فى حماس :

ـ يا إلهى !.. هذه الأماكن تتطوَّر كل يوم .

هزَّت (ياسمين) كتفيها ، قائلة :

ـ هذا أمر طبيعى .. كل شىء يتطوَّر بسرعة هذه الأيام .

وافقتها (رنا) فى حماس ، وراحت كلتاهما تتفقَّدان المعروضات الأنيقة الحديثة ، وتوقفتا معًا عند ركن أدوات التجميل ، والتقطت (رنا) زجاجة صغيرة من طلاء الأظافر ، وهى تهتف بحماسها المعهود :

ـ انظرى .. من يصدق أن يتواجد هذا النوع هنا ؟.. إنه فاخر ، وباهظ الثمن للغاية .

تلفَّتت (ياسمين) حولها ، قبل أن تقول فى اهتمام :

ـ كل شىء هنا باهظ الثمن ، وكأنه مكان للأثرياء فقط .

ثم تطلَّعت إلى صديقتها ، التى انهمكت فى طلاء أحد أظافرها ، بذلك الطلاء الفاخر :

ـ ترى كم تبلغ المبيعات اليومية ، لمكان كهذا ؟

« نصف مليون جنيه .. »

نطق (صفوت) العبارة ، فى جشع واضح ، وهو يجلس داخل سيارته عتيقة الطراز ، مع أفراد عصابته الثلاثة ، أمام ذلك المبنى التجارى ..

وعلى الرغم من الجشع الواضح ، الذى أطلّ من عيونهم جميعًا ، تساءل (وليد) ، وهو أصغرهم سنًا ، وأكثرهم عبقرية ، فى التعامل مع أجهزة الكمبيوتر والإلكترونيات ، فى توتر ملحوظ :

ـ اقتحام مكان كهذا لا يكون سهلاً أبدًا ؛ فهو مجهز بوسائل تكنولوجية أمنية عديدة ، فالبوَّابات كلها تحوى أجهزة كشف أسلحة ، وهناك نظام إلكترونى خاص ، يغلق كل الأبواب ، فى حالة الخطر ، بحيث يمنع الدخول إلى المكان ، أو الفرار منه ، كما أن الطوابق كلها مراقبة بشبكة تصوير إلكترونية ، و ....

قاطعه (صفوت) فى ضجر :

ـ أظننا نعلم كل هذا ، وراجعناه أكثر من مرة .

وزمجر (أشرف) ، خبير الأسلحة السابق ، وهو يضيف فى خشونة :

ـ ولهذا أضفناك إلى الفريق .

مطَّ (وليد) شفتيه ، وهو يقول فى توتر :

ـ ما زلت أجد الأمر معقدًا .

أجابه (باسل) ، إخصائى الخزائن فى غلظة :

ـ قم بدورك فحسب ، واترك لنا الباقى .

مطَّ (وليد) شفتيه مرة أخرى ، وهزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ فليكن .

راح الأربعة يراجعون خطتهم فى سرعة ، قبل أن يعتدل (صفوت) ، ويقول فى صرامة :

ـ هيا .. ابدأ التنفيذ .

مع قوله ، وعلى الرغم من توتره ، دفع (وليد) باب السيارة المجاور له ، وضمّ ياقتى سترته ، ودس كفيه فيها ، وهو يتجه فى خطوات عصبية ، نحو المدخل الرئيسى للمبنى التجارى ، فتمتم (أشرف) فى خشونة :

ـ أتظنه سينجح فى أداء دوره .

تراجع (صفوت) فى مقعده بكل هدوء ، وأسبل عينيه فى ثقة ، قائلاً :

ـ بكل تأكيد .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها كلمته ، كان (وليد) يعبر المدخل الرئيسى ، فانطلق أزيز كاشف الأسلحة الإلكترونى ، على نحو جعل حارس الأمن يتحفَّز ، ويده تسرع نحو مسدسه ، فأخرج (وليد) يده من جيب معطفه ، حاملة جهاز كمبيوتر يدوى صغير ، وهو يقول فى توتر :

ـ اهدأ يا رجل .. إنه جهازى فحسب .

قال الحارس ، دون أن يفقد تحفزه :

ـ اتركه هنا ، واعبر البوَّابة مرة أخرى يا سيِّدى .

نفذ (وليد) أوامره ، وصمتت البوَّابة هذه المرة ، وعبرها هو إلى داخل المبنى ، ثم أخرج ذلك الكمبيوتر اليدوى ، وراح يضغط أزراره فى لهفة ، قبل أن يهتدى بالخريطة المرسومة على شاشته ؛ لبلوغ هدفه الرئيسى ..

ولم تمض دقائق خمس ، حتى كان يقف أمام هدفه ..

لوحة تحكم إلكترونية فرعية ، فى الطابق الأرضى من المبنى ..

وبسرعة تليق بمحترف ، راح يوصّل أقطابًا دقيقة ، من جهاز الكمبيوتر اليدوى ، إلى لوحة التحكم الإلكترونية ..

وبسرعة أكثر ، أصبح داخل الدائرة الرئيسية ..

وفى قفزات سريعة دقيقة ، تعرف طريقها جيدًا ، راحت أصابعه تجرى على أزرار الكمبيوتر اليدوى الصغير ، الذى رسمت شاشته مجموعة من المنحنيات المتداخلة ، قبل أن ينطلق أزيز خافت ، انتفض له جسد (وليد) فى انتعاش ، وانتقلت معه أصابعه إلى هاتفه المحمول ، وضغط أزراره ، ولهث فى انفعال ، وهو يقول لزعيمه (صفوت) :

ـ أجهزة كشف الأسلحة توقفت عن العمل ، ونحن نمتلك الآن السيطرة الكاملة ، على دائرة الأمن الإلكترونية للمبنى .

تألّقت عينا (صفوت) ، عند سماعه العبارة ، وقال لرفيقيه فى حزم :

ـ هيا بنا .

هبط الثلاثة من سيارتهم ، مرتدين معاطفهم الثقيلة ، وكل منهم يخفى تحت معطفه مدفعًا آليًا قصيرًا ، وعبروا البوّابات الإلكترونية فى تتابع هادئ ، دون أن تطلق إنذاراً واحدًا ، وما إن أصبحوا داخل المبنى ، حتى اتجهوا فى حزم ، نحو الخزانة الرئيسية ، التى تتجمّع فيها حصيلة إيرادات اليوم كله ، وملامحهم تشف عن قسوة لا محدودة ، و ....

« ما رأيك فى هذا الثوب ؟!.. »

ألقت (رنا) السؤال ، بذلك الحماس ، الذى بدا جزءًا من شخصيتها ، فابتسمت (ياسمين) ، التى تقف عند الطرف الآخر للمتجر ، وقالت :

ـ أظن المكان كله يمكن أن يخبرك برأيه ، مع صوتك المرتفع هذا ؟!

لوّحت (رنا) بذراعيها ، وهى تهتف فى غضب طفولى :

ـ لماذا لا تقولين رأيك ببساطة .. أمن الضرورى أن يصبح كل شىء معقدًا معك ؟!

اتسعت ابتسامة (ياسمين) ، وهى تقول :

ـ إنه جميل ، ولكننى أحتاج إلى رؤيته فى ضوء أفضل .

تهلّلت أسارير (رنا) ، واندفعت حاملة الثوب الأنيق ، وهى تعبر به باب متجر الثياب ، هاتفة :

ـ هل يناسبك هنا ؟!

كانت تتحرّك فى سرعة وعشوائية ، حتى إنها لم تنتبه إلى (أشرف) ، فارتطمت به فى عنف ، وهو يسير أمام متجر الثياب ..

ومع اصطدامهما سقطا معًا ..

وانعقد حاجبا (ياسمين) فى شدة ..

ليس لأن صديقتها قد سقطت أرضًا ..

ولا لأن طرف الثوب قد تمزّق أثناء سقوطها ..

ولكن لأن سقوط (أشرف) معها ، قد أزاح طرف معطفه عن مدفعه الآلى ، فانكشفت فوهته فى وضوح ..

ولمحتها (ياسمين) ..

وانعقد حاجباها ..

واستعاد عقلها ذكرى بعيدة ..

ومؤلمة ..

وشعرت بغضب ..

وثورة ..

وسخط ..

ولمح (صفوت) نظرة (ياسمين) ..

وحاجبيها المعقودين ..

وتلك الانتفاضة ، التى سرت فى جسدها كله ..

ولأنه محترف ، فقد أدرك أن الأمر قد انكشف ..

وقبل أن يبدأ ..

وفى سرعة استجابة مدهشة ، قرّر (صفوت) أن هناك حلاً واحدًا فحسب ، لهذا الموقف غير المتوقَّع ..

الانتقال إلى الخطة البديلة ..

الخطة (ب) ..

ودون ذرة واحدة من التردُّد ، سحب مدفعه الآلى ، وأطلق رصاصاته فى الهواء ، وهو يجذب إليه (رنا) من شعرها ، قبل أن يكتمل نهوضها ، صائحًا :

ـ المكان تحت السيطرة .

وقبل أن تتحرّك (ياسمين) ، كانت الصرخات تنطلق ، فى كل مكان من المبنى التجارى ، والجميع يعدو دون أدنى نظام ..

وانطلقت صفارات الإنذار قوية فى المكان ..

وأغلقت الأبواب آليًا ..

وتحوّل المبنى الشهير ، فى لحظة واحدة ، إلى مصيدة ..

مصيدة موت ..

محتوم ..

* * *

اندفع العقيد (ياسر برهان) ، رئيس قسم مكافحة الإرهاب ، داخل ذلك الفندق الفاخر ، المجاور للمبنى التجارى الكبير ، وهو يسأل ضباط المباحث ، الذين احتشدوا هناك :

ـ ما الموقف بالضبط ؟!

أجابه أحدهم فى توتر :

ـ إرهابيون احتلوا المبنى التجارى يا سيادة العقيد .. ليست لدينا معلومات كافية بعد .. لا أحد يدرى حتى كيف نجحوا فى إدخال الأسلحة إلى المكان ، مع وجود كل وسائل الكشف الإلكترونية هذه .

تساءل :

ـ وماذا لديكم من معلومات غير كافية ؟

تبادلوا نظرة متوترة ، قبل أن يغمغم أحدهم :

ـ الواقع هو أنه ليست لدينا معلومات على الإطلاق .

زمجر العقيد (ياسر) ، قائلاً :

ـ أكره عندما أعمل كالأعمى .. لا يوجد ما يسمى بالغياب التام للمعلومات ، فى أية قضية .. هناك حتمًا شىء ما .. طرف خيط يمكن أن نلتقطه ، وننطلق منه إلى حقيقة صغيرة ، تقودنا إلى

حقيقة أكبر .. وهكذا ..

بدا مزيج من الحيرة والتوتر ، على وجوه رجال المباحث ، مما أورثه مزيدًا من الغضب ، وهو يقول فى حدة :

ـ أين المسئول عن تأمين المبنى ؟!

أجابه أحد الضباط فى سرعة :

ـ إنه هنا يا سيادة العقيد .. لقد استدعيناه فور وقوع الحادث .

أدار (ياسر) عينيه إلى حيث يشير الضابط وفرز ذلك الأنيق الذى يقف هناك فى سرعة ، قبل أن يسأله فى صرامة :

ـ أى منطق هذا ، الذى يدفعك إلى تصميم نظام أمن إلكترونى ، تغلق فيه كل الأبواب ، دون مدخل احتياطى واحد ، عند حدوث أية طوارئ ؟!.. ماذا لو شب حريق ما ؟!.. هل سيشوى رواد المكان فى الداخل .

أجابه الرجل فى هدوء مستفز :

ـ حالات الحريق تختلف ، فالدخان يشعل نظام أمن مختلف ، تفتح فيه جميع الأبواب ، حتى الأبواب الاحتياطية .

انعقد حاجبا (ياسر) ، وهو يقول فى لهفة :

ـ أتعنى أنه لو أشعل أحدهم حريقًا ما بالداخل ، فستفتح الأبواب تلقائيًا ..

أومأ المهندس برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ هذا صحيح .. ولكن كيف نبلغهم هذا ؟!

تراجع العقيد (ياسر) بحركة متوترة ، وهو يقول :

ـ ألا توجد وسائل اتصال بداخل المكان ؟!

انتقل بعينيه مع سؤاله ، إلى أكبر الضباط رتبة ، فتنحنح هذا الأخير فى توتر ، وهو يقول :

ـ من الواضح أنهم يسيطرون على الشبكة الإلكترونية للمكان ، وهذا يتضمن آلات المراقبة ، ونظم الاتصالات .

تساءل (ياسر) :

ـ وماذا عن اتصالات الهواتف المحمولة ؟!

تنحنح المهندس فى توتر ، وهو يقول :

ـ لقد تم تزويد المبنى بجهاز خاص ، لقطع كافة اتصالات الهواتف المحمولة ، فى حالات الـ ... الطوارئ .

شعر (ياسر) بغضب هادر ، يعربد فى أعماقه ، وتمنى لو أنه

باستطاعته أن يجز عنق ذلك المهندس الواقف أمامه ، وهو يقول فى حدة :

ـ هل لك أن تخبرنى كيف كنت تفكر بالضبط ، عندما وضعت نظامك الأمنى السخيف هذا ؟!

غمغم المهندس :

ـ فى حماية المكان والممتلكات ، و ....

قاطعه فى حدة :

ـ وماذا عن البشر .

بدا المهندس مصدومًا ، وكأنما لم يخطر هذا الاحتمال بباله قط ، فكظم (ياسر) غيظه فى صعوبة ، وهو يطلق من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة ، ويسأل فى عصبية :

ـ وماذا عن تسجيلات المراقبة السابقة ؟!

كانت الدهشة هذه المرة من نصيب ضباط المباحث ، الذين تبادلوا نظرات متوترة ، حسمها المهندس بقوله :

ـ كلها متوفرة ، فى المركز الرئيسى .

قال (ياسر) فى حنق :

ـ داخل المبنى التجارى بالطبع .

هزَّ المهندس رأسه نفياً ، وهو يجيب :

ـ بل هنا .. فى الفندق .

اتسعت عينا (ياسر) ، وهو يهتف :

ـ هنا ؟!

ثم صرخ بكل الغضب :

ـ ماذا تنتظر إذن ؟!.. اذهب لإحضارها يا رجل .. أريد مشاهدة كل ما حدث داخل المبنى التجارى ، خلال نصف الساعة ، التى سبقت الاقتحام .

أسرع المهندس لإحضار شرائط المراقبة ، فى حين اندفع ضابط فى زى أسود نحو العقيد (ياسر) ، وأدى التحية العسكرية ، قائلاً :

ـ فرقة مكافحة الإرهاب مستعدة لتلقى أوامرك ، يا سيادة العقيد .

مطَّ (ياسر) شفتيه ، وألقى نظرة عبر النافذة المجاورة ، على جنود فرقة مكافحة الإرهاب ، الذين تراصوا بملابسهم السوداء أمام المبنى التجارى ، وهم يؤدون تمارين الإحماء ، وأصواتهم ترج المكان ، ثم غمغم فى توتر :

ـ وما الذى يمكن أن تفعله فرقة مكافحة إرهاب ، فى موقف كهذا ؟!

أجابه الضابط ، الذى بدت عضلات ساعديه منتفخة ، أكثر من اللازم :

ـ يمكننا أن نحاصر المبنى ، ونستخدم سيارة مدرَّعة ، فى اقتحام مدخله ، فى نفس الوقت الذى يتم فيه تنظيم هجوم شامل ، من السطح .

كتم (ياسر) توتره فى أعماقه ، وهو يسأل :

ـ وأى أسلحة ستستخدمونها فى الهجوم ؟!

شدَّ الضابط قامته ، وهو يجيب فى حزم :

ـ كل أنواع الأسلحة ، التى تؤمِّن نجاح المهمة يا سيِّدى .

تطلَّع إليه (ياسر) بنظرة خاوية ، وهو يحاول تخيُّل المبنى التجارى شديد الازدحام ، وفرقة مكافحة الإرهاب مقتحمة على هذا النحو ...

وبعين الخيال ، رأى الهجوم ..

والاقتحام ..

والانفجارات ..

والرصاصات التى تتطاير فى كل مكان ..

ورأى ما هو أخطر ..

الدم ..

أنهارًا من الدم ، تسيل فى طوابق المبنى ، مع عشرات الضحايا ، من رواده الأبرياء المسالمين ، الذين سيجدون أنفسهم محاصرين ، بين نيران المجرمين وتفجيرات مكافحة الإرهاب ..

ولقد بدت الصورة مفزعة ..

مفزعة للغاية ..

لذا ، فقد التقط نفسًا عميقًا ، وهو يقول للضابط ، منتفخ الساعدين :

ـ دعونا لا نتعجّل الأمور .. الاقتحام العنيف سيكون له ضحايا حتمًا .

وعاد يلقى نظرة على الجنود ، قبل أن يشيح بوجهه ، مضيفًا :

ـ ثم إننا لم نعرف مطالب الإرهابيين بعد .

أجابه الضابط فى صرامة :

ـ مطالبهم لن تصنع فارقًا يا سيدى .

حاول (ياسر) التذرُّع بالصبر ، وهو يسأله :

ـ هل ترى هذا ؟!

قال الضابط فى لهجة قوية ، وبأسلوب يبدو وكأنه تدرَّب عليه ؛ ليلقى كلمات محفوظة ، عن ظهر قلب :

سياسة الوزارة تعتمد على عدم التفاوض مع الإرهابيين ، وعدم التهاون معهم ؛ حتى لا يغرى هذا آخرين بتقليدهم ..

سياسة الوزارة ..

وسياسة الدولة ..

كم يمقت (ياسر) هذه المصطلحات الكبيرة ، عندما يتم استخدامها فى مواقف شديدة الحساسية كهذه ..

المفترض فى سياسة أى وزارة ، أن تعتمد على إنقاذ حياة الأبرياء ..

وأن يكون هذا هو الهدف الأوّل لها ..

بلا منازع ..

وبلا مساومة ..

ولكن الزمن يختلف عن أى زمن آخر ، مارس فيه مهنته ..

فهو زمن التطرُّف ..

والغضب ..

والإرهاب ..

ومعطيات الموقف ، حتّمت وجود سياسة جديدة ..

سياسة تستهدف القضاء على الإرهاب ، بالدرجة الأولى ..

أيًا كان الثمن ..

ومهما كانت التضحيات ..

ولكنه لن يقبل بهذا أبدًا ..

لن يقبل التضحية بالأبرياء ، مهما كانت الظروف ..

ضميره لا يكن أن يقبل بهذا ..

أبدًا ..

ومن حزم وحسم ، شدَّ (ياسر) قامته بدوره ، وقال :

ـ مهما كانت سياسة الوزارة .. سننتظر .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان شحوب (رنا) قد بلغ ذروته ، وهى فى قبضة (صفوت) ، الذى ألصق فوهة مدفعه الآلى بصدغها ، وهو يقول لرفيقيه (باسل) و(أشرف) :

ـ أبلغا رقم أربعة أننا نعمل وفقًا للخطة (ب) .. وأننا نسيطر على الموقف حتى الآن ، ثم أسرعا بتنفيذ عملية الاقتحام ، حتى لا تتأخّر عن التوقيت .

كان الرعب مرتسمًا ، بأجلى صوره ، على ملامح (رنا) ، و(صفوت) يبتسم فى ظفر ، ويكشّر عن أسنان قذرة ، غير منتظمة ..

ولقد أعاد هذا ذكرى أخرى ، إلى عقل (ياسمين) ..

ذكرى تبغضها كل البغض ..

ذكرى ، جعلتها تمد يديها فى تلقائية ، لتتحسَّس حلية الصدر ، المصنوعة على شكل زهرة ، ذات فصوص قرمزية ..

ومع ملمس زهرتها القرمزية ، شعرت بالغضب ..

غضب شامل ..

قوى ..

كاسح ..

غضب ، لم تشعر بمثله ، منذ سنوات ..

سنوات ليست بالكثيرة ..

وليست بالقليلة ..

وبكل الغضب والمقت فى أعماقها ، تطلّعت إلى (صفوت) ، الذى زمجر فى شراسة واضحة ، وصاح بها :

ـ ابتعدى .

أشارت إليه (ياسمين) ، وهى تقول محذرة :

ـ إياك أن تمس شعرة واحدة من (رنا) ، وإلا ...

قاطعها فى سخرية شرسة :

ـ وإلا ماذا أيتها المتحذلقة .. هل ستحطمين أنفى ؟

لوهلة ، أطلّت من عينيها نظرة صارمة ، قبل أن تعقد ساعديها أمام صدرها ، قائلة :

ـ من يدرى ؟!.. ربما .

انفجر ضاحكًا فى سخرية ، وهو يجذب (رنا) المذعورة إلى حافة الشرفة ، التى تطل على فراغ المبنى الفسيح ، قائلاً :

ـ وماذا لو ألقيتها من هنا أمام عينيك ؟

شهقت (رنا) فى ارتياع ، وهى تلوِّح بكفيها ، هاتفة بصوت مختنق :

ـ (ياسمين) .. أرجوك .

انعقد حاجبا (ياسمين) فى شدة ، فى حين كرَّر (صفوت) ضحكته الساخرة ، وهو يقول :

ـ (ياسمين) .. اسمك (ياسمين) ؟!.. الأفضل يا صغيرتى

أن تدخرى جهدك لاختبار أدوات التجميل ، بدلاً من أن تطلقى تهديدات جوفاء ، لن تجدى شيئًا .

ازداد انعقاد حاجبيها فى توتر ، فى حين التفت هو إلى رفيقيه ، صارخًا :

ـ ماذا تنتظران ؟!

صرخته انتزعتهما من توترهما ، وجعلتهما يسرعان نحو خزانة الطابق الأرضى ، و(أشرف) ينقل الأوامر إلى (وليد) ، عبر جهاز اتصال لاسلكى محدود .. أما (ياسمين) ، فقد حاولت أن تلتزم الصمت ، إلا أنها وجدت نفسها تسأل (صفوت) ، فى شىء من التحدى :

كيف تصوَّرتم خروجكم من هنا ؟!

ألقى نظرة ساخرة على رواد المكان ، الذين تجمعوا مذعورين ، يحدقون فيه فى رعب ، وقال متحديًا بدوره :

ـ لا تقلقى نفسك بشأننا يا صغيرتى .. نحن نعرف طريقنا جيدًا هنا .

وجذبت العبارة انتباه (ياسمين) ..

بشدة ..

ومع عبارته ، كان العقيد (ياسر) يطالع شرائط المراقبة ، ويستعرضها فى سرعة ، قبل أن يتوقف عند مشهد بعينه ، وأشار إلى الشاشة أمامه ، قائلاً فى صرامة وغضب :

ـ كيف فات رجال الأمن هذا ؟!.. هؤلاء الثلاثة يرتدون معاطف لا تتناسب مع حالة الطقس الفعلية .. وهذا الانتفاخ يوحى بأن الشخص فى مقدمتهم يخفى بندقية ، أو مدفعاً آليًا تحت معطفه .

قال المهندس فى عصبية :

ـ مدفع آلى .. مستحيل !.. لو فعل هذا ، لانطلقت صفارات أجهزة كشف الأسلحة .

حك (ياسر) ذقنه ، قائلاً :

ـ ولكنها لم تنطلق .. وهنا يكمن التساؤل !

بدا المهندس حائرًا مرتبكًا ، وانتقلت حيرته إلى وجوه الضباط المحيطين به ، والذين راحوا يتابعون الشاشات بدورهم ، حتى أوقف العقيد (ياسر) المشهد فجأة ، وهو يقول فى شىء من اللهفة :

ـ أهذا معقول ؟!

ومال نحو الشاشة ، يتطلّع عن قرب ، إلى ذلك المشهد ، الذى ارتطمت فيه (رنا) بـ(أشرف) ، ثم قال فى اهتمام :

ـ هل يمكن تقريب الصورة ؟!

أسرع المهندس يضغط الأزرار أمامه ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

ومع تكبير الصورة ، تألّقت عينا العقيد (ياسر) ، واعتدل ، قائلاً ، فى لهجة حملت قدرًا هائلاً من الارتياح :

ـ عظيم .. مصادفة مدهشة ، ولكنها تضمن لنا إنهاء هذا الموقف ، بأدنى خسائر ممكنة .

شعر الجميع بالدهشة ؛ لذلك التحول الذى طرأ عليه ، وتساءل أحد ضباط المباحث ، وهو يشير إلى شاب مفتول العضلات ، يظهر فى ركن الشاشة :

ـ أتتحدَّث عن هذا يا سيادة العقيد ؟!

أدهشتهم أكثر ابتسامة (ياسر) ، والثقة التى بدت واضحة فى صوته ، وهو يقول :

ـ بل عن هذه .

قالها ، وهو يشير إلى آخر شخص يمكن أن يتخيله الجميع ..

إلى حاملة الزهرة القرمزية ..

إلى (ياسمين) ..

مباشرة .

* * *

2 ـ الخطـــة ..

« كل شيء يمكن تعويضه .. »

تردَّدت العبارة فى رأس زعيم العصابة (صفوت) ، وهو يقترب من سور الطابق ، داخل المبنى التجارى ، وذراعه اليسرى تحيط بعنق (رنا) فى قسوة ، فى حين تدير يمناه فوهة مدفعه الآلى فيما حوله ، فى تحفز وحشى ..

فمن أسوأ صفاته ، أنه يعتبر نفسه دومًا عبقرية نادرة ..

ولم يبال يومًا بأنها عبقرية شريرة ..

إجرامية ..

ووحشية ..

عثوره على (وليد) كان ، فى حد ذاته ، لمحة عبقرية ..

لقد التقى به فى مقهى من مقاهى الإنترنت ، وأدرك براعته منذ اللحظة الأولى ، مما أوحى إليه بالخطة كلها ..

خطة أول سرقة إلكترونية ، فى تاريخ مصر ..

ولأنه شديد الحذر ، فقد استعان بمحترفين ..

(أشرف) خبير الأسلحة ..

و(باسل) خبير الخزائن ..

ومع عبقرية (وليد) ، فى التعامل مع النظم الإلكترونية ، كانت الخطة محكمة بحق .. على الرغم مما حدث ..

فبينما كان يضع خطته ، وكلاعب شطرنج قديم ، وضع كل الاحتمالات فى الحسبان . حتى احتمال فشل الخطة الرئيسية ..

وحضور قوات الشرطة ..

كل شىء مدروس بدقة ..

بمنتهى الدقة ..

« إذن فلن تتركها .. »

قطعت (ياسمين) أفكاره بتلك العبارة ، التى نطقتها فى صرامة أدهشت صديقة عمرها ، واستفزت (صفوت) بشدة ، وجعلته يقول فى شراسة وحشية :

ـ كلمة إضافية واحدة ، وأنسف رأسها أمام عينيك .

دارت عينا (رنا) فى محجريهما ، من شدة الرعب ، مع عبارته الأخيرة ، وكادت تبكى ، وهى تهتف :

ـ (ياسمين) .. أرجوك .

تطلّعت إليها (ياسمين) بعينين خاويتين ، على نحو عجيب ، قبل أن تعيد بصرها إلى (صفوت) ، وكأنها تقيّمه ببصرها ، بطريقة ما ، انتبه هو إليها ، فقال فى شراسة :

ـ نظراتك لا تروق لى .

هزّت كتفيها فى هدوء ، قائلة :

ـ ولكنك أنت من يحمل السلاح .

لم ترق له عبارتها قط ، على الرغم من أنه الذى يحمل السلاح بالفعل ، فتراجع أكثر ، حتى التصق ظهره بالحاجز الزجاجى للطابق ، الذى يطل على فراغ طابقين تحت أرضيين ، وقال فى حدة :

ـ أظنك تحتاجين درسًا قاسيًا .

قالها ، ثم رفع يده عن عنق (رنا) لحظة ، ليجذب إبرة مدفعه الآلى ..

كانت لحظة واحدة ..

ولكنه لم يكد يفعلها ، حتى تحركت (ياسمين) ..

كالبرق ..

* * *

تبادل رجال المباحث ، حول العقيد (ياسر) نظرة صامتة متوترة ، قبل أن يتطلعوا جميعًا إلى صورة (ياسمين) ، وملامحها الرقيقة ، التى تملأ الشاشة بعد تكبيرها ، ثم يكسر أحدهم حاجز الصمت ، متسائلاً :

ـ وما الذى تساويه تلك الفتاة بالضبط ؟!

التقط العقيد (ياسر) نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب باقتضاب :

ـ الكثير .

مرة أخرى ، راح الجميع يحدّقون فى ملامحها ، ثم تساءل آخر فى حذر :

ـ وكيف هذا ؟!

أشار العقيد (ياسر) إلى الشاشة ، مجيبًا فى لهجة ، حملت كل الفخر والزهو والاعتزاز :

ـ إنها تلميذتى .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ أفضل تلامذتى ، على الإطلاق .

هتف أحدهم مستنكرًا :

ـ ولكنها مجرد فتاة .

رمقه العقيد (ياسر) بنظرة مستهجنة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ من تراها بنظرك المحدود مجرد فتاة ، أراها أنا مقاتلة فريدة الطراز ، فى قوات مكافحة الإرهاب .

اتسعت عيون الجميع بمنتهى الدهشة ، وهتف أحدهم مستنكرًا :

ـ مكافحة الإرهاب ؟!.. تلك ؟!

ثم أضاف آخر فى عصبية :

ـ وما الذى يمكن أن تفعله فتاة واحدة ، مهما بلغت براعتها ، مع ثلاثة من العمالقة ، كالذين رأيناهم على الشاشة .

بدا العقيد (ياسر) هادئًا واثقًا ، إلى حد مدهش ، وهو يجذب مقعدًا ، ويجلس عليه ، قائلاً :

ـ قد ترونها مجرّد فتاة رقيقة جميلة ، وهى كذلك بالفعل ، ولكن لو حاول أحدكم مس شعرة واحدة منها ، فستتحوّل فورًا إلى وحش كاسر .

هتف أحد الضباط مستنكرًا :

ـ هذه ؟!

ابتسم (ياسر) ، وهو يجيب فى هدوء ، لم يخل من رنة إعجاب واضحة :

ـ نعم .. هذه .

وصمت لحظة ، وكأنه سيكتفى بهذا القول ، إلا انه لم يلبث أن تَابَعَ :

ـ عندما كانت تلميذتى ، تعرَّضت وزوجها لمحاولة اغتيال ، من قبل بعض من كنا نطاردهم من الإرهابيين ، ولكنها نجت من المحاولة بأعجوبة .

تمتم أحدهم :

ـ وماذا عن زوجها ؟!

تطلَّع إليه (ياسر) ، دون أن يجيب تساؤله ، وأكمل وكأنه لم يسمعه :

ـ لقد خرجت من المستشفى مباشرة ؛ لتطارد الذين خططوا ، ودبَّروا ، ونفذوا العملية ، ولم تنعم بلحظة واحدة من الراحة ، إلا بعد أن رأت معظمهم خلف القضبان ، ينتظرون حكماً بالإعدام .

تساءل آخر :

ـ وماذا عن بعضهم الآخر ؟!

شرد العقيد (ياسر) ببصره لحظة ، قبل أن يجيب فى خفوت :

ـ لم تكتب لهم النجاة ..

تبادل الضباط نظرة دهشة ، جعلته يكمل ، وكأنه يحدِّث نفسه :

ـ كانت قد تزوَّجت من أقل من أسبوعين ، عندما حدث هذا .

تمتم بعضهم بكلمات مبهمة ، ثم قال أحدهم فى توتر :

ـ ما زلت غير مقتنع بأنها قادرة على مواجهة الموقف وحدها .

تنهَّد (ياسر) ، وغمغم فى حزم :

ـ سترون .

وعلى الرغم من دهشتهم ، فقد بدت كلمته واثقة .. إلى أقصى حد .

* * *

لا أحد يدرى كيف بدأ هذا بالضبط ..

(صفوت) ترك عنق (رنا) لحظة واحدة ..

ووثبت (ياسمين) ..

وفى لحظة أخرى ، وجد الجميع (رنا) تسقط جانبًا ، و(صفوت) يرتد إلى الخلف بمنتهى العنف ، ويرتطم بالحاجز ، ثم يهوى من ارتفاع طابقين تحت أرضيين .. بعض شهود العيان قالوا : إن (ياسمين) قد لكمته فى فكه ..

وبعض آخر أكد أنها ركلته فى صدره ..

لا أحد يمكنه الجزم بهذا أو ذاك ..

المهم أن (صفوت) قد سقط ..

وارتطم بالأرض فى عنف ..

وبكل الغضب ، الذى اشتعل فى أعماقه ، وعلى الرغم من آلامه ، وثب (صفوت) ، محاولاً استعادة مدفعه الآلى ..

ولكن (ياسمين) كانت قد وثبت بدورها ..

وبكل ذهول الدنيا ، رأت (رنا) صديقة عمرها ، تقفز من ارتفاع طابقين كاملين ، دون ذرة واحدة من التردُد ، وفى رشاقة مذهلة بحق ، فتهبط على قدميها ، على نحو بالغ من المرونة والخفة ، وعلى بُعد متر واحد من (صفوت) ..

وكانت مفاجأة قوية للرجل ..

مفاجأة لم تمنعه من أن يهتف :

ـ مستحيل !

وهو يستل خنجرًا ماضيًا ، من غمد خفى ، ملتف حول ساقه ..

وبزمجرة وحشية ، وقف يواجه (ياسمين) ، قائلاً :

ـ لست أدرى كيف فعلت هذا ، ولكن لا شىء فى الوجود يمكن أن يمنعنى ، من تمزيقك إربًا بلا رحمة .

هزَّت (ياسمين) كتفيها ، فى هدوء عجيب ، وهى تدور حوله ، قائلة :

ـ فى البداية ، منعتنى من مهاجمتك ، بسيطرتك على صديقتى . ثم دار جسدها بغتة حول نفسه ، وهو يرتفع فى الهواء ، لتركل (صفوت) فى أنفه مباشرة ، مستطردة :

ـ فما الذى يمنعنى عنك الآن ؟

كانت ركلة قوية ..

رشيقة ..

مفاجئة ..

ركلة جعلت (صفوت) يدرك على الفور ، أنه لا يواجه فتاة عادية ..

بل يواجه محترفة ..

وعلى أعلى مقياس ، من المهارة والقوة ..

أما (رنا) ، التى رأت ذلك المشهد من أعلى ، فقد تملكها ذهول ، ما بعده ذهول ..

مستحيل !..

مستحيل أن يكون ما تراه حقيقة ..

على الرغم من أنها تراه ..

وتسمعه ..

وتدركه ..

ولكنها ما زالت عاجزة عن تصديقه ..

من الصعب ، بل من المستحيل أن تتخيّل أن هذه (ياسمين) ..

من المستحيل تمامًا !!..

إنها ترى أمامها امرأة أخرى ..

امرأة تبدو وكأنها لم تعرفها أبدًا ..

امرأة قوية ..

جريئة ..

ماهرة ..

وشجاعة ..

شجاعة إلى حد مذهل ..

إلى حد أذهلها هى ..

وأذهل كل رواد المبنى ..

إلى أقصى حد ..

وأربكها تمامًا ..

فهى تعرف (ياسمين) منذ زمن طويل ..

منذ دراستهما الابتدائية ..

وكثيرًا ما سمعتها تتحدَّث فى لهفة ، عن رغبتها فى الالتحاق بأكاديمية الشرطة ..

ولكنها أبدًا لم تتصوَّر أنها جادة ، فى رغبتها هذه ..

ربما تصوَّرتها مجرد نزوة طفولية ..

أو حلم من أحلام المراهقين ..

خاصة وأن كلتيهما قد التحقتا بكلية العلوم ..

هى التحقت بقسم البيولوجيا ..

و(ياسمين) التحقت بقسم الكيمياء ..

وتخرجتا معًا ..

وبعد التخرج ، سافرت هى للحصول على درجة الماجستير ، لمدة عامين كاملين ، انقطعت خلالهما اتصالاتها بصديقتها ، أو إنها قد انخفضت إلى درجة كبيرة ..

ولكن هذا لم يقلقها ..

ربما لأنها تعلم أن صديقتها لا تميل أبدًا إلى كتابة الرسائل ..

ولا إلى كشف ما يدور فى أعماقها ..

و ....

وانقطعت أفكارها بغتة ، عندما فوجئت بفردين من العصابة يعودان

مسرعين إلى المكان ، وهما يطلقان رصاصات مدفعيهما فى الهواء فى غضب ..

وهوى قلبها بين قدميها فى عنف ..

فمهما بلغت مهارة صديقتها أو قوتها ، فقد اختل ميزان القوى الآن ..

تمامًا .

أما (ياسمين) نفسها ، فقد أعاد إليها دوى الرصاصات تلك الذكرى البغيضة ..

ذكرى محاولة الاغتيال ..

ذكَّرتها بذلك اليوم الربيعى ..

اليوم الذى كانت تحلم فيه بنزهة منعشة ، مع زوجها (مدحت) ..

والتى حوَّلتها محاولة الاغتيال إلى مأساة ..

مأساة رهيبة ..

للغاية ..

ومع الذكرى ، استدارت تواجه القادمين ..

وبحركة تلقائية ، تحسست حليتها ..

وتحفَّزت ..

وانهار قلب (رنا) داخل جسدها ..

فمع ما يحدث ، بدت لها المواجهة محسومة ..

وقاتلة ..

حتمًا .

* * *

اندفع أحد ضباط المباحث ، داخل الحجرة ، التى يقف فيها العقيد (ياسر برهان) ، وهتف فى توتر :

ـ دوى رصاصات يتردَّد ، داخل المبنى التجارى .

رفع (ياسر) إليه عينين هادئتين ، وهو يقول :

ـ مساكين .

هتف ضابط آخر :

ـ بالفعل .. المجرمون يسيطرون عليهم ، و ...

قاطعه (ياسر) فى هدوء :

ـ لم أكن أقصد الرهائن ، بمصطلحى هذا .

بدت الدهشة على وجوه الجميع ، وتبادلوا نظرة حائرة ، قبل أن يتساءل أحدهم متوترًا :

ـ من كنت تقصد إذن ؟!

أشار إلى الشاشة باسترخاء ، مجيبًا :

ـ الخاطفين .. فدوى الرصاصات يعنى أن (ياسمين) قد تحرَّكت .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن تشمل وجهه كله ابتسامة واثقة ، مع استطرادته الحاسمة :

ـ وأصبح الأمر مسألة وقت .. مجرد وقت يا سادة .

وتضاعفت دهشتهم ..

ألف مرة ..

* * *

كان الموقف دقيقًا بحق ..

المدفع الآلى أقرب إلى زعيم المجرمين (صفوت) ، بأكثر مما هو بالنسبة لـ (ياسمين) ، و(أشرف) و(باسل) يهرعان إلى

المكان ، فى غضب هادر ، بعد أن انتبها إلى ما يحدث ، وهما يطلقان نيران مدفعيهما فى عشوائية وعصبية ..

ـ والمكان مكتظ بالرواد ، الذين أصابهم دوى الرصاصات بحالة من الرعب التام ، جعلتهم يطلقون صرخات رهيبة ، وهم يحاولون الاحتماء بأى شىء ..

وصديقتها (رنا) تصرخ فى هستيرية من أعلى :

ـ اهربى يا (ياسمين) .. اهربى .

واتخذت (ياسمين) قرارها فى سرعة ..

وبأقصى سرعتها ، اندفعت نحو (صفوت) ، ووثبت وثبة مدهشة ، لتركله فى أنفه بطرف حذائها ، ثم تدور حول نفسها دورة رأسية فوق رأسه ، وتهبط خلفه ..

ومع الركلة ، أطلق (صفوت) صرخة غضب وألم ، وسقط على ظهره فى عنف ، ثم لم يلبث أن نهض فى سرعة ، واندفع على يديه وركبتيه ، بأسرع ما يمكنه ، حتى استعاد مدفعه الآلى ، واستدار يصوبه نحو (ياسمين) ، صارخًا :

ـ ستدفعين الثمن ، أيتها الـ ...

اختنقت العبارة فى حلقه دفعة واحدة ، وانعقد حاجباه فى غضب هادر ، وهو يبحث بعينيه عنها فيما حوله ..

ولكنها كانت قد اختفت ..

تمامًا ..

لم يدرك كيف ، ولكنها اختفت ..

وقبل أن يكتمل ذلك السباب الحانق ، الذى انطلق من حلقه ، برز زميلاه من خلف الحاجز العلوى ، وهتف (باسل) :

ـ ماذا يحدث ؟!

وهتف (أشرف) :

ـ لقد سمعنا قتالاً ، فعدنا بأقصى سرعتنا .

وتساءل (باسل) فى توتر :

ـ هل اقتحم رجال الشرطة المكان ؟!

شعر (صفوت) بغصة فى حلقه مع السؤال ، وهتف فى عصبية ، وهو ينهض واقفًا :

ـ هل تراهم حولنا ؟!

بدا الجواب محيرًا للرجلين ، فتساءل (أشرف) :

ـ مع من كنت تتقاتل إذن ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (صفوت) ، وهو يقول فى حدة :

ـ مع فتاة .

اتسعت عيون الاثنين فى ذهول ، وغمغم (باسل) ، وهو يحدّق فى خيط الدم ، الذى يسيل من أنف (صفوت) :

ـ فتاة ، فعلت بك هذا ؟!

لم يحتمل (صفوت) السؤال ، وهو يشعر بكل الغضب فى أعماقه ، فصرخ فى ثورة :

ـ سأقطع عنقها ، قبل أن نغادر المكان .

تبادل (باسل) و(أشرف) نظرة قلقة متوترة ، ثم غمغم الثانى فى توتر :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن نغادر المكان ، قبل أن تتعقد الأمور أكثر ، ونفقد فرصة النجاة .

ورفع (باسل) حقيبة كبيرة ؛ ليريه إياها ، وهو يقول :

ـ خاصة أننا قد فزنا بالغنيمة بالفعل .

كانت الحقيبة تحوى أكثر من نصف مليون جنيه ..

ولكنه لم يرها ..

ولم يشعر بالسعادة ..

كان الغضب يعربد فى أعماق (صفوت) بشدة ، ورغبته فى الانتقام من تلك الفتاة ، التى أذلت ناصيته أمام الجميع ، تكاد تعصف بنفسه ، إلا أن عقله لم يلبث أن سيطر على مشاعره ، وأدرك أن الخطة ما زالت ناجحة ، حتى هذه اللحظة ، وأنه باستطاعتهم جميعًا مغادرة المكان ، وفقاً لخطة الطوارئ ، التى وضعها مسبقًا ، ويفوزون باللعبة كلها ..

وعلى الرغم من غضبه وتوتره ، انتزع جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود من حزامه ، وضغط زره ، قائلاً :

ـ (وليد) .. ابدأ فى إعداد طريق الهروب ..

التقط (وليد) الرسالة ، فى حجرة التحكم ، فاعتدل بحركة أشبه بالعسكريين ، وقال فى سرعة :

ـ فورًا أيها الزعيم .

قالها ، وأسرعت أصابعه تضغط أزرار الكمبيوتر اليدوى الذى يحمله ، والذى أوصله بشبكة التحكم الإلكترونية ؛ ليفتح مجموعة من الأبواب ، التى تقود إلى مخازن المبنى ، ومنها إلى شارع صغير خلفه ، حيث تنتظرهما سيارة كبيرة ، تشبه تمامًا سيارات

الشرطة ، ليفروا بها من المكان ، وسط الحصار المضروب حول المبنى ..

كان الأمر دقيقًا ، ويعتمد على مجموعة من الخرائط الدقيقة للمبنى ، أمكنه الحصول عليها ، باختراق الكمبيوتر الرئيسى لشركة الإنشاءات ، التى أقامت المبنى ، وأخرى التقطها من كمبيوتر شركة الأمن ، التى صنعت نظام حراسة وتأمين المنشأة كلها ..

ولقد استغرق الأمر منه دقيقة واحدة ، ضغط بعدها زر الاتصال ، فى جهاز اللاسلكى المحدود ، وهو يقول فى حماس :

ـ الطريق مفتوح أيها الزعيم .

تألّقت عينا (صفوت) ، عندما سمع العبارة ، وقال عبر جهاز الاتصال المحدود :

ـ عظيم يا (وليد) .. كنت أعلم أنك قادر على فعلها .. هيا .. استبدل ثيابك ، وانضم إلينا فى سرعة .

قالها ، وأنهى الاتصال ، ثم استدار يصوب مسدسه إلى رواد المكان ، وعلى رأسهم (رنا) قائلاً فى قسوة متعمدة :

ـ لقد وزعنا عددًا من القنابل فى المبنى ، ولو تحرّك أحدكم ،

أو أطلق صرخة واحدة ، قبل دقائق عشر من انصرافنا ، سيتم نسف المبنى بكل ما فيه ومن فيه ، بواسطة ريموت كنترول بعيد المدى .. هل تفهمون ؟

أومأ الجميع بوجوه شاحبة مذعورة ، انحبست أنفاسها ، واختنقت فى أعماقها ، فى حين صعد هو إلى رفيقيه ، وكرّر عبارته فى الطابق العلوى ، ثم أشار إلى (باسل) و(أشرف) ، قائلاً :

ـ هيا بنا .

لم تكن كلمته قد اكتملت بعد ، عندما ظهرت (ياسمين) فجأة .. ظهرت على نحو لم يتوقعه أحد ..

ولم يكن من الممكن أن يتوقعه أحد ..

ففى مبادرة جريئة مدهشة ، هبطت معلقة بحبل سميك ، من الطابق العلوى ، وانقضت على الرجال الثلاثة مباشرة ..

وعلى الرغم منها ، ودون أن تعى ، أطلقت (رنا) شهقة قوية ، جمعت بين دهشتها وذعرها ، وهى تحدّق فى (ياسمين) ، التى بدت لها أشبه بالبطل الأسطورى القديم (طرازان) ، وهى تهبط بالحبل السميك .

ومع شهقتها ، استدار الرجال الثلاثة إلى حيث تنظر بعينين متسعتين ..

ومع استدارتهم ، ارتطمت بهم (ياسمين) ..

وأسقطتهم ..

ولكن ، ولأنهم تدربوا طويلاً ، قبل القيام بعمليتهم ، فقد استعادوا توازنهم فى سرعة ، و ...

« الحقيبة ؟!.. »

صرخ (باسل) بالكلمة ، فى هلع غاضب ، فأدار (صفوت) و(أشرف) عيونهما إلى حيث تواصل (ياسمين) اندفاعتها بذلك الحبل ، حاملة حقيبة الأموال ، لتثب داخل الطابق الذى يعلوهم مباشرة ..

وبكل غضب وثورة الدنيا ، صرخ (صفوت) :

ـ يا للحقيرة !

وانطلق مع زميلته ، يصعدان فى درجات السلم ، إلى الطابق الذى اختفت فيه (ياسمين) ، مع حقيبة الأموال التى سرقوها ..

أما (رنا) ، فقد ظلت مفغورة الفاه فى ذهول ، وهى تتمتم :

ـ هذا مستحيل !.. حتمًا مستحيل !

أما المجرمون الثلاثة ، فقد بلغوا ذلك الطابق ، الذى يحوى قسم أدوات التجميل النسائية ، وصرخ (صفوت) :

ـ حاصروا الطابق كله .. مدخله ومخرجه .. لا تمنحوها أية فرصة للفرار .

اندفع (باسل) نحو مخرج الطابق ، وتوقف (أشرف) عند مدخله ، فى حين تحرك (صفوت) داخله ، وهو يصرخ فى غضب :

ـ لا يوجد سبيل واحد للخروج من هنا أيتها الحقيرة .. ستعيدين إلينا أموالنا ، إما بإرادتك ، وإما أن ننتزعها من جثتك فيما بعد ، وفى كل الأحوال ..

بتر عبارته ، ليطلق دفعة من رصاصات مدفعه الآلى ، نحو منطقة اكتظت فيها زجاجات العطور ، ومساحيق التجميل ، فتحطمت ، وتناثرت شظاياها فى كل مكان ..

وعلى نحو عجيب ، امتزجت رائحة العطر والمساحيق ، بدخان الرصاصات ، ودموع المذعورين ، وغضب وشراسة المجرمين ..

ولكن (ياسمين) لم تتحرك قيد أنملة ..

لم تكن ترى الإرهابيين ، ولكن أذنها المدربة ، أدركت أنهم

يصوّبون رصاصاتهم ، إلى ركن آخر ..

ركن بعيد عنها ..

بعيد تمامًا ..

وكانت تدرك طبيعة موقفها بالضبط ..

إنها وحيدة ..

منعزلة ..

بلا سلاح ..

وبلا مخرج ..

وربما أيضًا .. بلا أمل ..

ولكنها تمتلك أثمن ما فى اللعبة كلها ..

الغنيمة ..

حقيبة النقود ، التى من أجلها فعل المجرمون ما فعلوه ..

وهم لن يتنازلوا عنها ..

مهما حدث ..

من أجلها ، سيقاتلون بمنتهى الشراسة ..

والعنف ..

والوحشية ..

وربما كان هذا ما تخشاه ..

ففى موقفهم هذا ، لن يتردّدوا فى فعل أى شىء ..

وكل شىء ..

حتى قتلها ..

وقتل كل كائن حى ، فى المبنى التجارى كله ..

خطر هذا فى ذهنها ، فى نفس اللحظة ، التى توقّف فيها (صفوت) عن إطلاق النار ، وقال فى عصبية :

- إنها ليست هنا .

غمغم (باسل) ، وأعصابه توشك على الإفلات :

- مستحيل !.. لا يمكن أن نسمح لها بهذا .. لو أمكنها الفرار بالمال ، فسوف ...

قبل أن يتم عبارته ، صرخ (أشرف) :

- إنها هناك .

قالها ، وهو يشير إلى قسم أدوات التجميل ..

ودون حتى أن تكتمل صرخته ، كانت أصابعهم العصبية المتوترة تضغط أزندة مدافعهم الآلية ..

وانطلقت الرصاصات فى المكان ..

كالمطر .

* * *

3 ـ رائحة الياسمين ..

« هناك قتال ما ، يدور فى الداخل .. »

هتف أحد ضباط المباحث بالعبارة ، فى عصبية شديدة ، قبل أن يلوّح بذراعه كلها ، مكملاً فى حدة :

ـ ونحن نقف هنا ساكنين .

التفت إليه العقيد (ياسر) ، متسائلاً فى حسم هادئ :

ـ وما الذى ينبغى أن نفعله ؟!

أجابه فى حدة :

ـ نقتحم المكان .. على الأقل .

سأله (ياسر) فى صرامة :

ـ وكم ستبلغ الخسائر فى اعتقادك ، مع عملية اقتحام عنيفة كهذه ؟!

أجابه الرجل متوترًا :

ـ لن تتجاوز الخمسة فى المائة .

مال (ياسر) نحوه ، قائلاً فى صرامة أكثر :

ـ وماذا لو أنه باستطاعتنا خفض تلك الخسائر ، إلى أقل من واحد فى المائة .

تساءل الرجل فى عصبية :

ـ وكيف هذا ؟!

اعتدل (ياسر) ، وقال فى حزم :

ـ باستخدام سلاحنا السرى .

تمتم أحد الواقفين فى دهشة :

ـ سلاح سرى .

مرة أخرى ، شرد العقيد (ياسر) ببصره وأفكاره ، وبدا وكأنه خارج هذه الدنيا لحظات ، قبل أن يقول بنفس الشرود ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ عند زواجهما ، أهداها زوجها حلية صدر بسيطة ، على شكل زهرة ، ذات فصوص قرمزية .. لم تكن غالية الثمن ، ولكنها كانت تحبه .. فأحبتها مثلما تحبه .. ومنذ ذلك الحادث ، لم تغادر منزلها من دونها قط .

ابتسم فى شروده ، وبدا وكأنه يستعيد ذكرى ما ، قبل أن يلتفت إليهم ، قائلاً :

ـ لهذا ، كنا نطلق عليها اسم (الزهرة القرمزية) .

لم يفهم الرجال صلة هذا بالأمر ، فتبادلوا كلهم نظرة صامتة ، دون أن ينطق أحدهم بحرف واحد ، فى حين تابع هو ، وابتسامته تتسع :

ـ كان الأمر يبدو طريفاً ، أن نراها فى زى مكافحة الإرهاب ، وعلى صدرها تلك الزهرة القرمزية .. بعض اللواءات أرادوا إجبارها على نزعها ، ولكنها فضّلت الاستقالة على أن تفعل .

تساءل أحد الرجال فى حذر :

ـ وهل ..

قبل أن يتم تساؤله ، أجاب العقيد (ياسر) :

ـ نعم .. لقد استقالت بالفعل .

هزّ رأسه فى أسف ، قبل أن يضيف :

ـ كانت استقالتها أكبر خسارة ، لقوات مكافحة الإرهاب .

تجرأ أحد الرجال ، وتساءل فى شىء من التوتر :

ـ وما علاقة هذا بسلاحنا السرى يا سيِّدى ؟!

التفت إليه (ياسر) بحركة حادة ، وهو يقول :

ـ ألم تفهموا بعد ..؟

بدت الحيرة على الوجوه ، فاستدار يشير إلى صورة (ياسمين) ، التى ما زالت تحتلّ الشاشة ، مضيفًا :

ـ هذه .

نطقها بحزم وثقة ..

بكل الحزم ..

وكل الثقة ..

* * *

كانت سيطرة (صفوت) ورجليه على قسم أدوات التجميل ؛ حيث تختفى (ياسمين) كاملة بكل المقاييس ..

لقد سيطروا على مدخله ..

ومخرجه ..

ومضمونه ..

وعندما انطلقت رصاصاتهم ، نحو المنضدة الخشبية ، التى تضم أدوات التجميل ، بمختلف أنواعها ، كانت (ياسمين) تختفى خلفها بالفعل ..

لذا ، فقد انبطحت أرضًا ، وألصقت جسدها كله بالأرضية الباردة ، ورفعت ذراعيها تحمى بهما رأسها ووجهها ، كما تدربت تمامًا ..

ومن فوقها وحولها ، تطايرت شظايا الزجاج وأدوات التجميل المحطمة ..

والرصاصات أيضًا ..

ولقد استمر هذا لدقيقتين كاملتين ، قبل أن تسمع صرخة (صفوت) :

ـ انقضوا عليها ..

ومع صرخته ، تعالى وقع أقدامهم الثقيلة ، وهم يندفعون إلى حيث تختفى ..

كانت عزلاء ، بلا أسلحة ، فى مواجهة ثلاثة من الأشداء ، يحملون مدافع آلية قاتلة ..

إلا أنها لم تتردَّد لحظة واحدة ..

ووثبت تواجههم ..

وفى مبادرة سريعة ، رفعت علبة مسحوق تجميل وردية مفتوحة أمام وجهها ، ونفخت المسحوق فى وجه (أشرف) ، ثم استدارت بسرعة مدهشة ، وهى تضغط قمة زجاجة من رشاشات العطر ، فى وجه (صفوت) ..

ومع صرخة الرجلين ، اللذين فقدا بصرهما مؤقتاً ، مع مبادرتها المباغتة ، وثبت هى فى رشاقة ، تتجاوز منضدة أدوات التجميل ، لتركل (باسل) فى وجهه وصدره ، بركلتين متعاقبتين سريعتين ، تراجع معهما الرجل بحركة عنيفة ..

ولكنها لم تتوقف ..

لقد ركلته فى صدره مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

كانت تبدو أشبه بمروحة بشرية ، وهى تدور حول نفسها ، وتركل (باسل) ، الذى تراجع مع ركلاتها ، وهو يصرخ :

ـ أيتها الـ ...

وقبل أن تكتمل صرخته ، ركلته ركلة أخيرة فى فكه ، تراجع معها جسده بحركة عنيفة ، ليرتطم ظهره بحاجز الطابق ، ويفقد توازنه ، و ...

ويهوى ..

ومع فقدان بصريهما ، ومحاولتهما استعادته فى سرعة ، سمع (صفوت) و(أشرف) صرخة زميلهما خبير الخزائن ، وهو يهوى من ارتفاع ثلاثة طوابق ، ليرتطم بالأرض فى عنف ، ويخمد صوته تمامًا ..

وبكل الغضب والثورة ، وعلى الرغم من صعوبة الرؤية أمامه ، راح (صفوت) يطلق رصاصاته فيما حوله ، فى عنف شديد ، صارخًا :

ـ (باسل) .. ماذا أصابك ؟!.. أجبنى يا (باسل) .. أجبنى .

ولكنه لم يتلق جوابًا ، فى حين صرخ (أشرف) ، وعيناه محمرتان بشدة :

ـ دعنا نخرج من هنا .. العملية فشلت .. دعنا ننجو بحياتنا .

صرخ (صفوت) فى ثورة :

ـ لا .. ليس بسبب فتاة حقيرة كهذه .

انطلقت صرخته ، وهو يدور حوله ، محاولاً العثور على (ياسمين) ..

أو حتى على حقيبة النقود ..

ولكن (ياسمين) لم تكن هناك ..

وكذلك الحقيبة ..

ومرة أخرى ، صرخ (أشرف) ، وهو يحدق فى جثة (باسل) ، الملقاة أسفل المكان ، فى وضع يوحى بأنه قد فارق الروح :

ـ لا داعى للمكابرة أيها الزعيم .. لقد فشلت العملية .. دعنا نهرب من هنا ، قبل أن نفقد كل شىء .

صرخ (صفوت) :

ـ ليس دون النقود .

صاح (أشرف) ، وهو يعدو نحو المخرج ، الذى أعدوه للهروب :

ـ النقود يمكن تعويضها ، أما الحرية ، فلا .

صرخ به (صفوت) ، وهو يصوب مدفعه الآلى نحوه :

ـ تجاوز أوامرى بخطوة أخرى ، وأقسم أن أنسف رأسك

بلا رحمة .

توقف (أشرف) فى عصبية ، وهو يقول :

ـ ولكننا نخسر بالفعل كل شىء .

صرخ فيه (صفوت) ، وهو ينتزع جهاز الاتصال المحدود من حزامه :

ـ ليس بعد .

ثم قال بمنتهى الصرامة ، عبر جهاز الاتصال :

ـ (وليد) .. حدد موقعك بالضبط .

أتاه صوت (وليد) العصبى ، وهو يقول :

ـ أنا فى طريقى للخروج .

صاح به فى حدة :

ـ لا خروج ، قبل أن تنتهى المهمة .

سأله (وليد) ، فى عصبية أكثر :

ـ ألم تنته بعد ؟!

أجابه بمنتهى الصرامة والحدة :

ـ لا أسئلة .. عد إلى حيث كنت ، واستخدم نظام المراقبة ؛ لتبحث عن فتاة حقيرة ، استولت على نقودنا .

هتف (وليد) فى توتر بالغ :

فتاة ؟!

صرخ فيه :

ـ نفذ الأوامر .. هيا .

وأنهى الاتصال فى حدة ، فغمغم (وليد) بمنتهى العصبية ، وهو يعود أدراجه :

ـ عم يتحدَّث بالضبط ؟!.. فتاة وسط كل رواد المكان ؟!.. أيبدو له هذا مطلبًا بسيطًا .

شق طريقه فى سرعة ، عبر ممرات المكان ، حتى بلغ حجرة التحكم الإلكترونى مرة أخرى ، وما أن دخلها ، حتى فوجئ بـ(ياسمين) داخلها ، تبتسم فى هدوء ، قائلة :

ـ كنت أعلم أنك ستعود إلى هنا .

اتسعت عيناه فى ذهول مذعور ، وحاول أن يتراجع فى سرعة ، إلا أن قبضتها كانت أكثر سرعة ، وهى تهوى على

أنفه ، بلكمة جعلته يرتطم بالجدار فى عنف ، ثم يسقط على وجهه فاقدًا الوعى ..

وفى هدوء وسرعة ، استخدمت بعض الأسلاك الهاتفية ، لتشل حركته تمامًا ، ثم انتزعت من جيبه جهاز الكمبيوتر اليدوى ، مغمغمة :

ـ إذن فهكذا أفسدتم نظم الأمن كلها .

استعادت بعقلها فى تلك اللحظة ، كل ما تعلَّمته فى هذا الشأن ..

استعادت تدريباتها الأوَّلية ، فى قوات مكافحة الإرهاب ..

والتدريبات ، التى تلقتها فى الخارج ..

وما درَّبها عليه (مدحت) ..

زوجها ..

درَّبها على كل هذا ، قبل حتى أن يتزوَّجا ..

كان رقيقًا ..

هادئًا ..

واثقًا ..

وحنونًا ..

لهذا أحبته ..

لهذا عشقته ..

وتزوجته ....

كانت تتصورً أن مثلها لا ينبغى أن يحب ..

لا ينبغى أن يربط قلبه بقلب آخر ..

فهذا يجعلها أكثر ارتباطاً بالحياة ..

وأكثر خوفًا من الموت ..

ولا يمكنها أن تزاول عملها بهذه المشاعر ..

ولقد حاولت أن تقاوم ..

حاولت ..

وحاولت ..

وحاولت ..

ولكن الحب كان أقوى منها ..

كان أقوى من عقلها ..

وقلقها ..

وخوفها ..

أقوى من كل مشاعرها الأخرى ..

تذكَّرت هذا فى لحظة ، ثم سرعان ما طردت هذا من ذهنها ، حتى لا تعوق الذكريات مهمتها ..

تلك المهمة ، التى فرضت نفسها على وجودها ، دون سابق إنذار ..

وبسرعة ومهارة ، أوصلت أسلاك الكمبيوتر اليدوى بشبكة التحكم الإلكترونية ، وراحت أصابعها تتحرك على أزراره ..

بمنتهى الثقة ..

ومنتهى البراعة ..

فى اللحظة نفسها ، كان (صفوت) يدور فى المكان ، فى غضب شديد ، وقد استعاد بصره ، وتضاعفت ثورته ، وعاد يضغط زر جهاز الاتصال المحدود ، قائلاً فى حدة :

ـ ألم تعثر عليها بعد ؟!

كان يتوقع سماع جواب من صديقه عبقرى الكمبيوتر

(وليد) ، إلا أنه فوجئ بصوت (ياسمين) ، يقول فى سخرية :

ـ لن يرهقه العثور علىَّ ، على الرغم من فقدانه وعيه ، فأنا أحتل موقعه الآن ، ولقد أغلقت أمامكم طريق الهروب تمامًا ، وسأعيد نظم الأمن كلها للعمل ، خلال دقيقة واحدة .

اتسعت عينا (أشرف) ، فى رعب هائل ، وهو يقول :

ـ رباه !.. كنت أخشى هذا .. كنت أخشى هذا .. لقد فشلنا .

أما (صفوت) ، فقد انعقد حاجباه ، بكل غضب الدنيا ، وهتف :

ـ ليس بعد .

ثم وثب فجأة ، إلى الطابق أسفله ، وانقضّ على (رنا) ، وجذبها من شعرها بمنتهى القسوة ، وألصق فوهة مدفعه الآلى أسفل ذقنها ، ثم صرخ ، عبر جهاز الاتصال المحدود :

ـ أهنئك على براعتك أيتها الحقيرة ، ولكننى سأمهلك تلك الدقيقة فحسب ، فإما أن تستسلمى ، وتعيدى إلينا نقودنا ، أو أنسف رأس صديقتك بلا رحمة .

وشهقت (رنا) بمنتهى الرعب ..

أما (ياسمين) ، فقد انعقد حاجباها فى شدة ، وأدركت ، من

صوت الرجل وأسلوبه ، أنه يعنى ما قاله هذه المرة ..

يعنيه تمامًا ..

وهذا يعنى أنها قد تنجح فى مهمتها ..

ولكن الثمن سيكون غاليًا ..

إلى أقصى حد .

* * *

لم تشعر (رنا) فى حياتها كلها بالرعب ، مثلما شعرت به فى تلك اللحظات الرهيبة فـ (صفوت) يقبض على عنقها ، بمزيج من الغضب والقسوة ، وفوهة مدفعه الآلى ملتصقة بأسفل ذقنها ، ومتحفزة لإطلاق الرصاصات لتنسف رأسها ، عند أى توتر أو استفزاز ..

أما زميله (أشرف) ، فقد بدا شديد العصبية ، وهو يقول :

ـ ماذا تفعل بالله عليك .. لقد فشلت العملية .. لابد وأن نعترف بهذا ، قبل فوات الأوان .

صرخ فيه (صفوت) ، بصوت حمل دوى جنون هادر :

ـ اخرس ، وإلا أفرغت رصاصات مدفعى فى صدرك .

صرخ (أشرف) بدوره ، فى عصبية بلغت ذروتها .

ـ يبدو أنك قد نسيت من المتخصِّص هنا .

ولوهلة ، بدا أن كليهما سيفرغ رصاصات مدفعه فى صدر الآخر ، مما جعل عينا (رنا) المسكينة تتسعان عن آخرهما ، وهى تنهار ، قائلة :

ـ لا تفعلى بى هذا يا (ياسمين) .. أرجوك .

ومن موقعها ، سمعت (ياسمين) عبارة صديقة عمرها ..

وتمزّق قلبها فى ألم ..

فواجبها ، كضابطة سابقة فى إدارة مكافحة الإرهاب الدولية ، يحتم عليها ألا تقف ساكنة ، وهؤلاء المجرمون يسعون لسرقة المكان ..

وصداقتها لـ (رنا) تحتم عليها ألا تتركها فى محنتها ..

أما (صفوت) ، فقد صرخ مرة أخرى ، وسبَّابته ، تتحفَّز بحق على زناد مدفعه ..

ـ عشر ثوان تبقت .. وأقسم أن أنفذ ما قلته ، وسأبعثر مخ صديقتك الحقيرة هذه ، فى المكان كله .

انهارت (رنا) تمامًا ، عند هذه النقطة ، وبدا لها أن نهايتها آتية لا ريب ، و ...

« أنا قادمة .. »

انبعث صوت (ياسمين) ، عبر مكبرات الصوت فى المكان ، بنبرة هادئة أكثر من اللازم ، حتى أن (أشرف) قال فى عصبية :

ـ لست أشعر بالارتياح لهذا .

صرخ فيه (صفوت) مرة أخرى :

ـ اصمت .

ثم ارتفع صوته فى حدة وعصبية ، وهو يتابع :

ـ أما أنت أيتها الحقيرة ، فأمامك دقيقة أخرى فقط للظهور هنا ، ومعك حقيبة النقود .. إياك والحضور دونها .

لم يتلق جوابًا من (ياسمين) هذه المرة ، فصرخ فى حدة :

ـ هل تسمعيننى ؟!

أجابه (أشرف) فى عصبية :

ـ إنها فى الطريق إلى هنا حتمًا .

تلفّت (صفوت) حوله فى توتر عنيف ، وضغطت ذراعه القوية عنق (رنا) أكثر ، وهو يقول :

ـ ومن أدراك ؟

انتقلت عدوى قلقه إلى (أشرف) ، الذى تلفت حوله بدوره ، قائلاً :

ـ أسرع بالله عليك .. لو أنها سيطرت على (وليد) ، فسيقتحم رجال الشرطة المكان حتمًا ، إن عاجلاً أو آجلاً ، أو ...

قاطعه (صفوت) فى حدة :

صوّب مدفعك إلى رواد المكان .

انطلقت صرخات الرواد المذعورين ، عند هذه النقطة ، فى حين أدار (أشرف) فوهة مدفعه إليهم فى آلية ، وهو يقول :

ـ الموقف سيزداد تعقيداً .

ولكن (صفوت) تجاهله تمامًا ، وهو يصرخ :

ـ ستظهرين خلال ثلاثين ثانية فحسب ، وإلا فسأنسف رأس زميلتك ، ولو حاولت الشرطة التدخُّل ، أو منعنا من الفرار ، سنقتل الجميع بلا رحمة .

وعبر أجهزة المراقبة ، التى أعادت (ياسمين) تشغيلها ، التقط رجال الشرطة ما يحدث ، وقال أحدهم فى توتر :

ـ الأوغاد ما زالوا يسيطرون على الموقف .

اندفع آخر ، يقول فى حماس :

ـ فى رأيى ، ينبغى أن نقتحم المبنى التجارى الآن .. لقد عادت آلات المراقبة والرصد للعمل ، وهذا يعنى أن الطريق أصبح مفتوحًا للهجوم .

أضاف ثالث فى حزم :

ـ أنا أتفق معك فى هذا .

قالها ، وأدار عينيه إلى العقيد (ياسر) ، كما فعلوا جميعًا ، وكأنما يسألونه الرأى والمشورة ..

وصمت هو طويلاً ..

طويلاً جدًا ..

صمت ليدير الأمر فى رأسه مرة ..

ومرتين ..

وثلاث ..

كان يدرك ، وفقًا لتعاملاته السابقة معها ، أن (ياسمين) قادرة وحدها ، على السيطرة على الموقف كله ..

وبأقل خسائر ممكنة ..

أقل حتمًا ، مما سيسببه اقتحام المكان ..

أقل بكثير ..

لقد درَّبها ..

ولقَّنها ..

ورآها تعمل ..

وتقاتل ..

ويدرك ، أنها قادرة على هذا ..

ولكنه يدرك أيضًا أن الثقافة الشرقية ستحول بين المسئولين الكبار ، وبين استيعابهم للأمر ..

تلك الثقافة ، التى تضع المرأة دومًا ، فى الموقع الأدنى ..

والتى لا تتصوَّر أنها قادرة على القتال ..

والنضال ..

والتفوّق ..

والنصر ..

ثقافة عقيمة ، تحول بين (ياسمين) ، وبين عقولهم ..

ولكنه يختلف ..

يختلف ؛ لأنه يعرفها ..

ويثق بها ..

إلى أقصى حد ..

ولابد وأن يحاول الموازنة ، بين هذا وذاك ..

لابد ..

وأخيرًا ، قال فى حزم ، وهو يراقب شاشة الرصد بكل الاهتمام :

ـ فليكن .. سنمنحها تلك الدقيقة .. ثم نقتحم المكان .

ومع نهاية قوله ، أو حتى قبل أن يكتمل ، كان رجاله يصدرون أوامرهم ، بالاستعداد لاقتحام المبنى ..

وفى ذلك الطابق ، شعرت (رنا) بأنفاسها تختنق ، وبأنها على وشك أن تلقى مصرعها ، و(صفوت) يضاعف من ضغط ذراعه على عنقها ، مع شدة توتره ، صارخًا :

ـ ثوان وتنتهى المهلة .. أين أنت أيتها الـ ..

قبل أن تكتمل صرخته ، قاطعه صوت (ياسمين) الصارمة ، وهى تقول :

ـ أنا هنا .

كان ظهورها مفاجئًا ، حتى إن أحدًا لم يدر ، من أين أتت ، ولا كيف وصلت إلى المكان ، وهى تحمل حقيبة النقود الكبيرة .

وبحركة عصبية ، استدار (أشرف) بفوهة مدفعه الآلى نحوها ..

وضغط زناد المدفع بالفعل ..

ولكن (ياسمين) تحركت أولاً ..

أو انقضت أولاً ..

كالصاعقة ..

فمع استدارة (أشرف) ، والنظرة الشرسة المتحفزة فى

عينيه ، أدركت هى ما سيفعله بالضبط ..

وبسرعة ، وثبت نحوه ..

ومع التفاتته ، وضغطه الزناد ، ضربت مدفعه الآلى بحقيبة النقود ، بكل ما تملك من قوة ..

ومالت فوهة المدفع إلى أعلى ..

وانطلقت الرصاصات ..

ودوت معها صرخات رعب هائلة ..

كل الحناجر أطلقت صرخاتها ..

فيما عدا (أشرف) ..

فالضربة الأولى من (ياسمين) أبعدت فوهة مدفعه ، والثانية لطمت وجهه بمنتهى القوة ..

وسقط (أشرف) ..

سقط ليرتطم بالأرض ، ويزحف فوقها لمترين ، قبل أن يستقر عند قدمى صفوت ، الذى صرخ بعصبية بلغت ذروتها :

ـ ستدفعين ثمن ما فعلته غاليًا .

استعادت هدوءها بسرعة مدهشة ، وهى تقول :

ـ لم أكن لأقف ساكنة ، وهو يحاول قتلى .

صاح بها فى ثورة :

ـ أمره لا يهمنى .. أعطينى النقود ، وسأترك صديقتك ، عندما أخرج من هنا .

أجابته بمنتهى الصرامة :

ـ اتركها أوّلاً ، أو لن تحصل على قرش واحد .

زمجر بكل ثورة الدنيا ، صارخًا :

ـ وماذا لو أخذتها من فوق جثتك ؟!

حملت لهجتها كل سخرية الدنيا ، وهى تقول :

ـ ينبغى أن تكون هناك جثة أوّلاً ، ولست أراك بالمهارة الكافية ، لبلوغ هذه المرحلة .

صرخ (صفوت) :

ـ الأمر لا يحتاج إلى مهارة أيتها المتحذلقة .. بل إلى هذا .

قالها ، وأدار فوهة مدفعه الآلى نحوها بسرعة ..

وضغط زناده ..

وانطلقت الرصاصات ..

ولكن (ياسمين) كانت تتوقّع هذا ؛ لذا فقد رفعت حقيبة النقود ، التى وضعت داخلها قطعة معدنية سميكة ، من قسم الصيانة ، لتتلقى عليها كل الرصاصات ، التى أطلقها (صفوت) ، وهى تندفع نحوه بكل سرعتها ..

وكل قوتها ..

كان كل ما تنشده هو أن يزيح فوهة المدفع عن رأس صديقتها ..

ولقد فعل ..

ولكنه انتبه إلى الأمر ، وأدار فوهة مدفعه بسرعة ، لينسف رأس (رنا) ، قبل أن تبلغه (ياسمين) ..

ولم تكن المسافة التى تفصلهما تسمح بمنع هذا ، فى الوقت المناسب .. أبدًا ..

لذا ، فقد تخلّت عن حقيبة النقود ، ووثبت تختطف مدفع (أشرف) ، الملقى إلى جواره ، ودارت حول نفسها ، وأطلقت منه رصاصة ..

رصاصة واحدة ، اخترقت منتصف جبهة (صفوت) ، على بُعد سنتيمترات قليلة من رأس (رنا) ، التى أطلقت شهقة رهيبة ، وارتجف جسدها كله فى عنف ، عندما جحظت عينا (صفوت) ، وهوى عند قدميها جثة هامدة ..

وساد فى المكان صمت رهيب ..

صمت صنعه الرعب ..

وصنعته الصدمة ..

وفى اللحظة نفسها ، اقتحمت قوات مكافحة الإرهاب المكان ، ولكن صوت العقيد (ياسر) تردَّد عبر أجهزة الصوت فى المبنى التجارى ، وهو يقول فى حزم :

ـ لا إطلاق نار .. انتشروا فى المكان فحسب .

والتقط نفسًا عميقًا ، وابتسامته تملأ وجهه ، مع استطرادته :

ـ لقد تمت السيطرة على الموقف .. تمامًا ..

قالها ، وكأنه يكافئ نفسه على ثقته ..

لقد كان الوحيد الواثق ..

وربما الوحيد ، الذى يعرف قدرات (ياسمين) الحقيقية ..

وفى لحظة ، استعادت ذاكرته مواجهاتها السابقة ، مع مجرمين أكثر قوة ..

وأكثر شراسة ..

وعنفًا ..

ولكنها هزمتهم ..

هزمتهم جميعًا ، وهى تحمل على صدرها تلك الزهرة ، التى أهداها إياها زوجها ..

زهرتها القرمزية ..

* * *

"لن أسامحك على هذا أبدًا .." ..

هتفت (رنا) بالعبارة فى غضب ، وهى تجلس إلى جوار (ياسمين) ، فى طابق أدوات التجميل بالمبنى التجارى ، الذى انتشر فيه رجال مكافحة الإرهاب ، فتوقفت الأخيرة عن حديثها مع العقيد (ياسر) ، لتلتفت إليها ، متسائلة :

ـ ولماذا ؟!

هتفت (رنا) فى حدة :

ـ كيف تخفين عنى أمرًا كهذا ؟!

سألتها (ياسمين) فى براءة وبساطة :

ـ أى أمر ؟!

هتفت (رنا) :

ـ مهنتك .

ضحك العقيد (ياسر) ، وهو يقول :

ـ وماذا عن مهنتها ؟!.. إنها موظفة محترمة ، فى الإدارة المالية لمديرية أمن القاهرة ، و ....

قاطعته (رنا) :

ـ هل ستواصلون السخرية منى ؟!

أطلق ضحكة أخرى ، وأشار إلى (ياسمين) بيده ، قائلاً :

ـ فليكن يا زهرتى .. سأتركك الآن مع صديقتك ، وسأنتظرك غدًا فى مكتبى ، لتقدمى تقريرًا وديًا عن الموقف .

ومال نحوها ، ليغمز بعينه ، مكملاً :

ـ المالى .

ابتسمت (ياسمين) دون تعليق ، ولوّحت له بيدها فى رقة ، وهو ينصرف مبتعدًا ، وما إن اختفى ، حتى سألتها (رنا) فى توتر :

ـ ألن تصارحينى بالأمر ؟!

استدارت إليها (ياسمين) ، فى صمت استغرق دقيقة كاملة ، قبل أن تقول فى جدية شديدة :

ـ الواقع أننى أحتاج إلى رأيك هذه المرة .

سرت موجة من الحماس فى جسد (رنا) ، وهى تقول :

ـ كلى آذان مصغية .

وهنا ، التقطت (ياسمين) طلاء شفاه ، وسألتها فى اهتمام :

ـ هل يناسب هذا اللون بشرتى ؟! هل تعتقدين أنه سيروق له ؟!

وصرخت (رنا) معترضة ..

ولكن (ياسمين) ابتسمت ..

فقط ابتسمت ..

كان ذلك المستشفى يرفل فى صمت تام ، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، عندما تعالى وقع أقدام نسائية ، يشق جدار الصمت ، فى إيقاع منتظم ثابت ..

ودون أن ترى وجه القادمة ، ابتسمت ممرضة القسم ، وتركت مكانها ، لتستقبلها ، قائلة :

ـ فى موعدك بالضبط يا سيِّدتى .

غمغمت (ياسمين) :

لن يعوقنى أى شىء فى الوجود ، عن القدوم إليه .

ابتسمت الممرضة ، فى حنان وإعجاب ، تشوبهما لمحة إشفاق ، وهى تشير بيدها إلى إحدى حجرات الطابق ، قائلة :

ـ لا شك لدىَّ فى أنه ينتظرك .

لمحت ابتسامة حانية ، على وجه (ياسمين) ، التى اتجهت إلى الحجرة ، وتوقَّفت أمام بابها لحظة ، لتعدِّل ثيابها ، وشعرها فى اهتمام ، ثم دلفت إليها ..

وفى حيرة ، تساءلت ممرضة جديدة :

ـ من هذه ؟!

أجابتها ممرضة القسم فى إعجاب :

ـ إنها أعظم مثال على الحب ، والتفانى ، والتضحية .

ثم التفتت إليها ، متابعة فى حماس :

ـ زوجها فاقد الوعى ، منذ أكثر من ثلاث سنوات ، ولكنها تزوره كل يوم ، ولم تنقطع عن زيارته يومًا واحدًا ، وفى كل مرة ، تأتيه متأنِّقة .

عطرة ، وكأنه يشعر بوجودها ويترقَّبها .

قالت الممرضة الجديدة فى دهشة :

ـ ثلاث سنوات ؟!.. ولكن الأطباء يقولون : إنه لن يستيقظ من غيبوبته أبدًا ، بل وينصحون بنزع أجهزة الإعاشة عنه ، و ....

قاطعتها ممرضة القسم :

ـ لقد رفضت ، ولم تفقد الأمل فى عودته إلى وعيه أبدًا .

ثم هزَّت رأسها ، واستطردت فى وجد :

ـ ويا له من حب !

فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها عبارتها ، كانت (ياسمين) تنحنى ، لتطبع قبلة حانية ، على جبين زوجها الغارق فى غيبوبته ، وهى تقول فى حب وحنان :

ـ كيف حالك اليوم يا حبيبى ؟!

لم تتلق جوابًا بالطبع ، ولكنها جلست إلى جواره ، وسألته مصطنعة المرح :

ـ قل لى : هل راق لك طلاء الشفاه هذا ؟!.. وبالمناسبة .. لن تصدق ما حدث لى ، عندما ذهبت لشرائه .

راحت تروى له تفاصيل ما حدث ، فى ذلك المبنى التجارى ، وأصابعها لا تتوقَّف عن مداعبة تلك الزهرة التى لا تنزعها عن صدرها قط ..

الزهرة القرمزية .

* * *

(تمت بحمد الله)

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

فى هذا الكتاب

صفحة

- سعدية (قصة قصيرة) 5
- طب ليه ؟ ! .. (مذكرات) :..... 41
  ٣ ـ أبلة سهير 42
- جمعية الحرنكش (مسرح الشباب)..... 53
- تجربة بيروقراطستان (سيرة شخصية)... 87
- الزهايمر (قصة كاملة) 135
- حبيبى (دراسة) : 171
  ٩ ـ أنانية الحب 173
- وزارة العقل (قصة قصيرة) 185
- الموت حيًا (قصة قصيرة) 210

قصة العدد :

الزهرة القرمزية 223

- مجلتنا (العدد الثانى) 311

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم